د . عصمت سيف الدولة

الشباب العربي والهوية

مشكلة الانتماء

" أوصيكم بالشباب خيراً فإنهم أرق أفئدة . لقد بعثني الله بشيراً ونذيراً فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ " .

صدق رسول الله (ص)

(١)

مدخل

١٩٨٥ عام الشباب :

١- منذ خمسة أعوام أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قراراً باعتبار عام ١٩٨٥ عاما دوليا للشباب، تتكاتف خلاله الجهود وتتكامل من أجل دراسة منظمة ومكثفة وعالمية لمشكلات شباب العالم وحلولها وأساليب تحقيق تلك الحلول . وقد بدأ التحضير له مبكراً . فمنذ عام ١٩٨٠ وافقت هيئة الأمم المتحدة على وضع برنامج محدد لنشاطها خلال عام ١٩٨٥ . وأنشأت لقيادة هذا النشاط ومتابعته – حتى بعد انقضاء عام ١٩٨٥ – أمانة عامة مقرها فيينا (النمسا) ، واختارت لها أميناً عاماً هو الاستاذ محمد شريف . وعملت على أن تتكون في أغلب الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة لجان للتحضير للنشاط الدولي المرتقب والمساهمة فيه . وأصدرت من أجله نشرة خاصة تتابع ذلك النشاط وتعمل على نشره وتبادل أخباره وخبرته . ثم انها أتاحت لكل المنظمات غير الحكومية المعنية بالشباب ومشكلاته فرصة المساهمة ايجابياً في التحضير والمشاركة والنشاط العالمي تحت مظلة هيئة الأمم المتحدة بدون وساطة الدول التابعة لها . أكثر من هذا أنها اتجهت اتجاهاً جاداً الى دراسة كيفية شق قنوات اتصال مباشر بين الشباب كافة وبين المنظمة الدولية والابقاء على هذا الاتصال بدون عوائق .

٢- اتسع نطاق هذا التحضير ابتداء من عام ١٩٨٣ . ففي ذاك العام انعقدت أربعة مؤتمرات اقليمية بدعوة من هيئة الأمم المتحدة وتحت اشرافها في نطاق التحضير للعام الدولي للشباب ، هي : المؤتمر الاقليمي لدول آسيا والباسيفيك الذي انعقد في تايلاندا ، والمؤتمر الاقليمي لدول أمريكا اللاتينية الذي انعقد في كوستاريكا ، والمؤتمر الاقليمي لدول غرب آسيا الذي انعقد في العراق والمؤتمر الاقليمي لدول أوروبا الذي انعقد في رومانيا .

وتوالت المؤتمرات واللقاءات والندوات خلال عام ١٩٨٤ بكثافة ملفتة : في ليما (بيرو) من ٢٩ مارس إلى ٦ أبريل ، وفي فيينا (النمسا) من ٢ إلى ١١ أبريل، وفي كوالالمبور- (ماليزيا) من ٩ إلى ١٤ أبريل ، وفي صوفيا (بلغاريا) من ١١إلى ١٩ أبريل ، وفي بلاجيو (ايطاليا) من ٣٠ أبريل الى ٢ مايو، وفي بلفاست (ايرلندة الشمالية) من ٦ الى ١٢ مايو، وفي بيكين (الصين) من ١٤ الى ١٨ مايو، وفي نيقوسيا (قبرص) من ٤ الى ١٩ مايو وفي كوستونق (رومانيا) من ٢٨ مايو إلى ٢ يونيو، و في جنيف (سويسرا) من ١٩ مايو الى ١ يونيو، وفي سالزبورج (النمسا) من ١٦ الى ٢٢ يونيو ، وفي بوخارست (رومانيا) من ١٨ الى ٢٢ يونيو وفي ميونخ (ألمانيا الغربية) من ٢١ الى ٢٤ يونيو ، وفي بيونس ايرس (الارجنتين) من ١١ الى ١٥ يوليو ، وفي سنداي (اليابان) من ١٥ الى ٢٥ يوليو ، وفي تري تاون (الولايات المتحدة الامريكية) من ١٦ الى ٢٢ يوليو ، وفي بانجوك (تايلاند) من ٢٦ الى ٣٠ يوليو ، وفي أرهوس (الدانمرك) من ٦ الى ٩ اغسطس ، وفي مونتريال (كندا) من ٥ الى ١١ اغسطس ، وفي كولومبو (سيري لانكا) من ٢٩ اكتوبر الى ٢ نوفمبر ، وفي هافانا (كوبا) من ٤ الى ٨ نوفمبر ... الى آخره .

وحين بدأ عام ١٩٨٥ كانت قد تحددت بوادر انعقاد سلسلة أخرى من المؤتمرات واللقاءات والندوات فيما بين يناير واغسطس ١٩٨٥ : في بلفاست (ايرلندة الشمالية) ونيويورك (الولايات المتحدة الامريكية) وسان باولو (البرازيل) ومونتريال (كندا) ونيروبي (كينيا) وموسكو (الاتحاد السوفييتي) وتامبير (فنلندة) واوبرشوتزن (النمسا وبرشلونة (اسبانيا) واوروفيل (الهند) ... الى آخره .

٣- متابعة ما نشر وما ينشر من أخبار وخبرات تلك الاجتماعات تكاد توحي الى المتابع أن العالم موشك على مواجهة كارثة شاملة ذات صلة وثيقة بالشباب، خاصة اذا قارنها بحجم وكثافة المؤتمرات أو اللقاءات أو الندوات التى انعقدت خلال عام واحد لمواجهة مخاطر الحرب العالمية الثالثة وأسلحتها النووية وهي مخاطر فناء البشر وليست مجرد كارثة تصيب البشرية.

٤- وكأنما خشيت هيئة الأمم المتحدة ألا يصدق الناس أن مشكلات البشرية قد حلت ولم يبق إلا مشكلات الشباب فأرادت أن تضخم الكارثة إلى الحد الذي يثير الفزع في النفوس فعادت الى ما كانت قد اكتشفته خلال نشاطها عام ١٩٧٩. وقد كان عام ١٩٧٩ مخصصاً - بناء على قرار من هيئة الأمم المتحدة - ليكون العام الدولى للطفل . وقد أسفر العام الدولي للطفل عن حقائق مفزعة حقا سمحت لاحدى نشرات هيئة الأمم المتحدة بأن تتحدث عنها تحت عنوان " الأيام السوداء " وهي تعنى العصر الذي نحياه . فقد تبين أن الخط البياني لمعدل وفاة الأطفال في العالم الثالث ما يزال عند معدله في أوروبا قبل منتصف القرن الماضي بالرغم من التقدم الكبير الذي حققته علوم الصحة والوقاية والعلاج . وأن خمسة عشر مليون طفل يموتون دون سن الخامسة سنويا ، ٩٧% منهم من بين أطفال العالم الثالث، و ٢٢% منهم يموتون بسبب ضعف التغذية ، فكأن العالم تعرض لظاهرة وأد جماعى أو أقتطاع من البشر عند المنبع .

وراحت نشرات هيئة الأمم المتحدة تلقي بهذه الظلال الكئيبة التى اسفر عنها العام الدولي للطفل على الدراسات التحضيرية للعام الدولي للشباب . فلم تعد مرحلة الشباب سابقة على مرحلة النضج بل هي مرحلة لاحقة لمرحلة الطفولة. وليس الموتى من الاطفال إلا شباباً مؤودين قبل ان يشبوا . ولم يعد الشباب موضوعاً تدرسه مجموعة من الكهول والشيوخ المتأثرين بتجارب شبابهم الذي انقضى بل أصبح موضوع مسؤولية الشباب أنفسهم عن بعض اسباب مشكلاتهم . وتوالت النداءات والاقتراحات والبرامج التي تستهدف جميعها حث الشباب او حمله على أن يساهم بالجهد الوفير في حل مشكلات الطفولة ، لا تطوعاً بل لأنها مشكلاتهم أنفسهم . وأصبح كل هذا جزءاً من برنامج النشاط العالمي في العام الدولي للشباب .

٥- ومع ذلك فإن هيئة الأمم المتحدة لم تترك للباحثين الدارسين فرصة الإيغال في موضوع الدراسة والبحث حتى أقصى حدوده . ربما خوفاً من ان يسفر البحث والدراسة عن أنه لا يوجد ما يسمى مشكلات الشباب ، وان أسباب هلاك الأطفال ومعاناة الشباب وعذاب الكهول ومذلة الشيوخ تتصل بأنظمة سياسية واقتصادية وقوى دولية قادرة وقاهرة معروفة او قابلة للمعرفة . فرفعت هيئة الأمم المتحدة على نشاطها في العام الدولي للشباب ، عام ١٩٨٥ ، شعاراً مثلثاً هو : المشاركة ، التقدم ، السلام . وحولت الشعار إلى ضابط للبحث وحد للدراسة حين طلبت إلى المؤتمرات التي انعقدت أن توزع ما تعرفه عن الشباب على ما يدور حول تلك المحاور الثلاثة لا تتجاوزها ، فجاءت الأبحاث والدراسات دائرة حول تلك المحاور لا تكاد تتعداها إلا قليلاً .

يتمثل بعض هذا القليل فيما نبه إليه المؤتمر الاقليمي لدول غرب آسيا الذي انعقد في العراق من ضرورة النظر إلى الشباب على ضوء البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي هم جزء منها واجتناب دراسة مشكلاتهم كما لو كانوا يعيشون في فراغ . وفيما نبه إليه المؤتمر الاقليمي لدول أمريكا اللاتينية الذي انعقد في كوستاريكا محذراً من طغيان الجانب الدعائي عن العام الدولي للشباب حتى لا يؤدي – قياساً على النتائج الممكنة – إلى مزيد من خيبة الأمل والاحباط وفقدان الثقة في جدوى العلاقات الدولية بالنسبة الى شباب يعيش في ظل نظم اقتصادية فاشلة في تحقيق التنمية ، وفي وقت يمر فيه العالم بأزمة اقتصادية خانقة .

٦- ما الذي تعنيه هيئة الأمم المتحدة بتلك " الشعارات – الضوابط – الحدود ؟

سئل عن هذا الاستاذ محمد شريف الأمين العام للعام الدولي للشباب فقال : (١) ان المشاركة تعني المنافسة والمساهمة في اتخاذ القرارات التي تؤثر في حياة الشباب ومستقبل مجتمعاتهم ، وهي تتضمن الوعي والمساواة والقبول والتدخل وان يؤخذ كل هذا مأخذ الجد و (٢) ان التقدم يعني التجديد والتطور بالنسبة إلى الفرد وإلى المجتمع واطلاق حرية الشباب في أن يختاروا طرقا جديدة الى مستقبلهم وان يتجهوا إلى كل الاتجاهات طالما يحتفظون بالاحترام لثقافتهم وتاريخهم (٣) وان السلام ليس مجرد قطع النزاع بل انعدامه . وهو الادراك والعمل والمساواة والمشاركة والتقدم . انه الحرية متحققة والاستيثاق من أن المستقبل يستحق الحياة .

٧- قد لا يكون ثمة اعتراض على بلاغة التعبير ولكن السؤال الذي يعترض الاعجاب البالغ بهيئة الأمم المتحدة وعامها الدولي للشباب هو : ما هي العلاقة الخاصة التي تقرن بين المشاركة والتقدم والسلام من ناحية وبين الشباب دون غيرهم من ناحية أخرى ؟

إن لم تكن المشاركة فإن البشرية كلها ، بكل دولها ، بكل نظمها ، لم تستطع حتى الآن أن تهتدي إلى نظام يمّكن الناس في المجتمع من المساهمة في اتخاذ القرارات التي تؤثر في حياتهم ومستقبل مجتمعاتهم . بعض النظم تستغني عن مساهمتهم جميعاً بما تجمع عليه قلة منهم أو بما يقرره قادة يقال ملهمون تحظى قراراتهم بعد نفاذها بالقبول الجماعي كما يقولون . وبعض النظم تجمعهم قسرا وتشركهم قهرا لتنسب اليهم ما يتخذه القادة من قرارات. وبعض النظم تدعوهم كل بضع سنوات لاختيار القادة الذين سيتخذون القرارات التى تؤثر في حياتهم ومستقبل مجتمعاتهم. وما ان يتم الانتخاب حتى تقطع العلاقة بين المختارين ومن اختاروهم فلا يكون الأولون ملزمين بشيء أو مسؤولين عن شيء أمام الآخرين ولما كانت الارادة لا تنتقل، فان القرارات التي يتخذها الذين تم انتخابهم تعبيرا عن ارادتهم لا تمت بصلة الى إرادة الناخبين، وبالتالي لا يصح أن ينسب اليهم أنهم شاركوا في اتخاذها. لهذا لا يكون قريبا من الحقيقة الزعم بان الشباب وحدهم من بين كل المحكومين في الأرض، غير الحاكمين ، هم الذين يفتقدون وسيلة المساهمة الارادية الفعلية فى اتخاذ القرارات التى تؤثر فى حياتهم ومستقبل مجتمعاتهم بل يشاركهم الكهول والشيوخ فيما يفتقدون فلا يصح الشعار إلا أن يكون عنوانا لما يفتقدونه جميعا.

وان يكن التقدم فإن كل انسان، من حيث هو انسان ، سواء أكان شاباً أم كهلاً أم شيخاً لا يكف عن محاولة التقدم ولا يستطيع أن يكف . حيث التقدم هو الاشباع المطرد لاحتياجاته الروحية والفكرية والمادية المتجددة أبداً . إنما تقوم مشكلة التقدم حين تحول الظروف الاجتماعية دون اشباع تلك الاحتياجات أو إطراد اشباعها . والظروف الاجتماعية ليست مقصورة العطاء أو

المنع على الشباب وحدهم . انها عناصر تكوين المجتمع الذي يعيش فيه الشباب مع من دونهم من أطفال ومن تجاوزهم عمراً من الكهول والشيوخ . لهذا لا يكون قريباً من الحقيقة الزعم بأن الشباب وحدهم من بين كل المتخلفين في المجتمع ، هم الذين يفتقدون المقدرة على التقدم ، بل يشاركهم الأطفال والكهول والشيوخ فيما يفتقدون فلا يصح الشعار إلا أن يكون عنواناً لما تفتقده المجتمعات فيفتقده الناس فيها جميعاً طالما يحتفظ الناس بالاحترام لثقافتهم وتاريخهم .

وإن يكن السلام فقد انقضى فقد انقضى عصر كان الشباب وحدهم هم وقود الحروب . أما الآن فإن الحروب الشاملة قد ساوت بين الشباب والأطفال والكهول والشيوخ في مخاطر الهلاك ، وامتدت آثارها التدميرية من جبهات القتال الى كل ثمار النشاط الانساني في المزارع والمصانع والمتاجر ووسائل النقل والمدن والقرى والكفور . لهذا لا يكون قريباً من الحقيقة الزعم بأن الشباب وحدهم من بين كل البشر هم الذين يفتقدون السلام ، بل يشاركهم البشر جميعاً فيما يفتقدون فلا يصح الشعار إلا أن يكون عنواناً لما تفتقده البشرية جميعاً .

٨- ان كل هذا لا يقلل كثيراً من قيمة نشاط هيئة الأمم المتحدة ولا ينبغي أن يضعف حماس المشاركة في العام الدولي للشباب . فمهما تكن الشعارات والضوابط والحدود التي رأت هيئة الأمم المتحدة ان تنظم بها نشاطها ، فإن هذا النشاط قدم ويقدم وسيقدم إلى الشباب وإلى المهتمين بأمرهم حصيلة بالغة الثراء من المعرفة بالشباب العالمي ومشكلاته وحلولها الممكنة أو المأمولة ، ما كان يمكن أن تتاح لولا نشاط هيئة الأمم المتحدة . ولقد احسنت فعلاً الدول العربية التي تساهم في هذا النشاط . والواقع أن هذا الحديث عن الشباب العربي ليس إلا محاولة لعدم التخلف عن موكب عشرات الألوف من البشر الذين يعملون ، كل في حقله ، من أجل انجاح العام الدولي للشباب ، وليس موضوعه إلا من وحي ما اتصل بعلمنا من نشاط أولئك العاملين . فقد اخترنا له " الانتماء " موضوعاً لأننا افتقدنا فيما وصل إلى علمنا ما نعتقد أن مشكلة الانتماء تستحقه من الدراسة بالنسبة إلى الشباب كافة ، وبالنسبة إلى الشباب العربي على وجه خاص . حديثنا ، إذن محاولة إضافة وليس محاولة انتقاص من أهمية وجدوى كل حديث عن الشباب ...

ولكن، ما هو الشباب ؟

ما الشباب :

٩- هناك مثل يقول : " قد تعرف السمكة كل ما في البحر إلا الماء " . وهو مثل صادق الدلالة. لأن التمايز بين الأشياء شرط أولي لمعرفتها . ولما كانت السمكة التى لا تعيش إلا في الماء فإن فرصة التمييز بينه و بين غيره من المواد مستحيلة عليها فمستحيل عليها أن تعرفه. قياسا على هذا المثل نستطيع أن نبالغ قليلا فنقول ان الشباب بالنسبة الى الفرد هي تلك الفترة من العمر التى لا يعرفها وهو يحياها الى أن تنقضى ، فيبدأ في معرفتها من خلال ما يفتقده من مميزاتها طوال ما بقى له من العمر حتى إذا ما بلغ الشيخوخة فوهن العظم وبهتت الذاكرة ضاعت كثير من الذكريات إلا ذكريات الشباب. غريب أن تفرغ الذاكرة خزانتها من أحداث الماضي ولا تكاد تبقي منها إلا ما جمعته من مرحلة الشباب . وهو غريب لأنه من أسباب العذاب في مرحلة الشيخوخة حيث يشعر الفرد خلالها شعوراً مؤلماً بمدى عجزه قياساً على معيار شبابه . هذا مع أن علماء النفس يؤكدون القول بأن من خصائص الذاكرة أن تلقي في زوايا النسيان مسببات الألم من ذكريات الماضي .

كل الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت اليهم أو عادوا إليها . أكثرهم شعوراً بافتقادها أولئك الذين لا يكفون عن إدانة الشباب كافة . انها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس ويعبر عنها المثل الشائع عن رأي الثعلب فيما لايستطيع ادراكه من عناقيد العنب . حيلة نفسية أخرى يلجأ إليها الشيوخ خاصة تعبيراً عن افتقادهم المأساوي مرحلة شبابهم . انها اصطناع الحكمة والقاء المواعظ عن الشباب وعليهم . موضوع الاحتيال انهم يحاولون علناً استرجاع شبابهم المفقود المفتقد في شباب غيرهم بأن يعظوه لعله أن يسلك كا كانوا هم سالكيه لو كانوا شباباً . ولما كانوا يعرفون أن المواعظ منفرة إلا من الوالدين يحكم ما توحي به من استعلاء صاحبها فإنهم ، وهم يعظون الشباب علناً ، يحاولون استرجاع شبابهم خفية . ويلتمسون إلى ذلك أسباباً من الكساء أو الدواء تستثير السخرية حيناً وتثير الشفقة في كثير من الأحيان .
في أواخر القرن الخامس عشر تولى كرسي البابوية في الكنيسة الكاثوليكية البابا انسونت الثامن . ذلك الذي ارتشى مالاً وفيراً من السلطان العثماني بيازيد الثاني ليوقف حملاته الصليبية ضد الشرق ، فوجهها إلى الغرب واستولى على غرناطة العربية في الاندلس (٢ يونيو ١٤٩٢) .
كان ذلك البابا مولعاً بإلقاء المواعظ عن الشباب وعليهم محذراً منذراً من نزوات الشباب الآثمة ، مبشراً بما يعوض الحرمان من جزاء الصالحين في الجنة . وكان هو في أواخر حياته يوشك ان يدلف الى الجنة كما لاشك كان يعتقد . فلما مات (٢٦يوليو ١٤٩٢) اتضح ان وفاته كانت بسبب ثالث عملية جراحية اجريت له بناء على أمره في محاولة يائسة لاعادة بعض مظاهر الشباب . اختار البابا في شيخوخته الرجوع الى الشباب بدلا من التقدم الى الجنة . وليس البابا انسونت الثامن إلا مثلا .

١٠ – أما الشباب بالنسبة الى المجتمعات فهم شيء آخر تماماً . أنهم شريحة من التكوين البشري للمجتمع يعبرها الناس منه ويغادرونها اليه وتبقى هي مليئة دائماً . وبالتالي فإنها من ثوابت التكوين الاجتماعي . من هنا تكسب أهميتها القصوى في دراسة مشكلات أي مجتمع ومعرفة الحلول الممكنة لتلك المشكلات . مشكلات المجتمع وليس مشكلات الشباب . فالواقع – كما سنرى – ان ليس للشباب في أي مجتمع مشكلات خاصة وان كان لكل مجتمع مشكلات خاصة بالشباب .

ولقد أدركت بعض المجتمعات التي يقال لها " بدائية " أهمية الشباب بهذا المفهوم الاجتماعي فاصطنعت لتقسيم العمل فيها مقاييس عمرية ما تزال آثارها باقية فى بعض القبائل المستوطنة في أثيوبيا وكينيا وتنجانيقا واوغندا والسودان خاصة قبائل " البانتو " . هناك يقسم الذكور الى طوائف عشر طبقاً لأعمارهم . تحمل كل طائفة اسماً مميزاً . وينتمي كل الى طائفة عمره انتماء جبرياً وينتقل كل من يتجاوز عمره حد الانتماء الى طائفته الى طائفة أخرى تليها . اما المواليد من كل طائفة فينتمون الى طائفة الاطفال بينما يكون آباؤهم وأجدادهم منتمين الى طوائف أخرى . وهكذا تتصل الأجيال في حلقة دائرية . وتقوم كل طائفة بنوع أو أنواع محددة من النشاط الاجتماعي اللازم للقبيلة ككل ، فتتكامل جهود الأجيال من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع وسلامته واشباع حاجاته . ويؤدي الانتماء الى كل طائفة ، وحمل اسمها ، والعمنل المشترك بين أفرادها ، إلى تنمية وتوثيق علاقات التعاون والتآخي والتآلف بين أفراد كل طائفة ، فتتطهر تلك المجتمعات التي يقال لها " بدائية " من جرثومة مرض العصر الحديث : الفردية .

الغالب في هذا التقسيم " الطائفي " الزماني أن يلتحق الذين يبلغون سن الخامسة عشرة الى طائفة واحدة الى أن يبلغوا سن الرابعة والعشرين . وهم طائفة مميزة وممتازة أيضاً (طائفة الكوندالا) . ويوصف أفرادها بأنهم الواعون أو المهمون أو الذراع الأيمن من المحاربين .. تبعاً لمعايير الامتياز في القبائل المتميزة .

١١- هذا التحديد البدائي لطائفة متميزة من أفراد تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين هو تحديد ملفت ومثير للدهشة . ملفت لأن هذا هو المعيار العمري لمرحلة الشباب المتعارف عليه دولياً والذي اعتمدته هيئة الأمم المتحدة وهي تحدد العمر الزمني لهذه المرحلة بمناسبة العام الدولي للشباب . أما مايثير الدهشة فهو اسلوب تحديده فنحن نعرف أن عديداً من المؤتمرات العلمية قد ناقشت المعيار الزمني للشباب مستعينة بالاكتشافات العلمية الحديثة قبل أن تتعارف على تحديده بما يطابق ما تواطأت على تحديده أكثر القبائل البدائية تخلفاً ، فكيف حدده البدائيون ؟

على أي حال فإن للدارسين العرب رأياً لا يتفق مع ما تعارفت عليه الدول . فقد ذهب مؤتمر وزراء الشباب العرب الذي انعقد في اكتوبر ١٩٦٩ إلى أن التحديد الأولي لمرحلة الشباب لا يعني تجاهل مرحلة السن قبل الخامسة عشرة أو بعد الخامسة والعشرين . وحيث أسهم دارسون من العرب في المؤتمر الاقليمي لدول غرب آسيا الذي انعقد في العراق (اكتوبر ١٩٨٣) ذهب المؤتمر إلى أنه ينبغي ان تضم على أي حال فإن للدارسين العرب رأياً لا يتفق مع ما تعارفت عليه الدول . فقد ذهب مؤتمر وزراء الشباب العرب الذي انعقد في اكتوبر ١٩٦٩ الى أن التحديد الدولي لمرحلة الشباب لا يعني تجاهل مرحلة السن قبل الخامسة عشرة أو بعد الخامسة والعشرين . وحيث اسهم دارسون من العرب في المؤتمر الاقليمي لدول غرب آسيا الذي انعقد في العراق (اكتوبر ١٩٨٣) ذهب المؤتمر إلى انه ينبغي أن تضم الى مرحلة الشباب كما حددتها هيئة الأمم المتحدة مرحلة سابقة تبدأ من العاشرة ومرحلة لاحقة تنتهي الى الثلاثين . وعللوا ذلك بأن نسبة كبيرة ممن يمرون بهذه السن المبكرة أو المتأخرة يدخلون سوق العمل بحكم الظروف الاقتصادية لبلاد المنطقة . وتحمل منشورات المجلس القومي للشباب والرياضة بجمهورية مصر العربية آراء كثيرة من الاساتذة الاخصائيين بتحديد الفترة الزمانية لمرحلة الشباب فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين ، على أساس ان الخامسة عشرة هي بداية الادراك العقلي لمجريات الأمور وان اطلاق نهاية مرحلة الشباب حتى الثلاثين يتيح فرصة لأعداد كبيرة من الشباب للمساهمة في مشكلاتهم وحلولها واثراء الدراسات المتعلقة بالشباب كما يقول الدكتور سيد صبحي في كتابه عن " الشباب وأزمة التعبير (١٩٨٣) " وهو واحد من قلة من اساتذة الصحة النفسية في مصر الذين اهتموا بتخصيص دراسات عن الشباب . أما الأغلبية ، وهم اساتذة متفوقون في ميدان تخصصهم ، فلا يكادون يعترفون بمرحلة خاصة بالشباب انما يعرفون مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة ويمدون مرحلة المراهقة هذه مداً قد يتجاوز سن العشرين . يرجع ذلك إلى انهم ، بحكم تخصصهم في الطب النفسي ، لا يعنون بصفة أساسية الا بدراسة الظواهر غير السوية في الأفراد والجماعات ، مثلهم في هذا مثل علماء الاجرام الذين يهتمون اهتماما خاصا بانحراف الأحداث، وعلماء القانون الذين لا يلتقون فى كل ما يدرسونه بكلمه الشباب .

هل لهذا التحديد أهمية ؟

١٢- نعتقد أن له أهمية بالنسبة الى منهج البحث . إذ لا بد من أن يحدد الخاص تحديدا دقيقا حتى تمكن معرفة احكامه الخاصة به المقصورة عليه فلا تمتد إلى العام ولا تطغى عليه أحكامه. وقد رأينا من قبل كيف أن شعارات المشاركة والتقدم والسلام لا تميز شيئا محددا يتعلق بالشباب خاصة وأنها تصلح- بذات الكفاءة - ان تكون شعارات لنشاط دولي تخصص له أعوام طويلة يمكن أن تسمى " الأعوام الدولية للبشر". هذا من ناحية . و من ناحية ثانية فان التراجع ببداية مرحلة الشباب لتشمل مرحلة الطفولة أو مدها لتشمل ما يتجاوزها عمرا لأسباب بيئية أ اقتصادية أو اجتماعية أو حتى صحية هو مصادرة على المطلوب . فليست دراسة مرحلة الشباب مطلوبة لذاتها وانما لمعرفة مايؤثر فيها اجهاضا أو انتقاصا أو تشويها من عوامل بيئية أو اقتصادية أو اجتماعية أو صحية . واذا كانت غاية البحث هو اكتشاف المشكلات الاجتماعية الخاصة بالشباب و الحلول الاجتماعية الممكنة لها ، فان تحديد ماهية الشباب هو مسألة أولية لا بد أن يقضى فيها قبل الدخول في الموضوع كما يقال فيما يعرض على القضاء من دعاوي، ومن ناحية ثالثة ، وأخيرة ، ان هذا التحديد بالغ الأهمية لبحث مشكلة الانتماء التي إخترناها موضوعا لهذا الحديث كما سنرى .

ولكن هل يمكن تحديد مرحلة الشباب تحديدا مجردا عما يؤثر فيها؟

١٣- لقد اجتهدنا في هذا اجتهاد غير المتخصصين . فلذنا بما كتبه المتخصصون في دراسة الانسان كما هو وما يرد عليه من تطورات فسيولوجية وعقلية بحكم الزمان وحده، أي مع استبعاد المؤثرات الخارجية استبعادا مؤقتا، إلا مؤثر الوراثة فلا أحد استبعده لأنه غير قابل للاستبعاد. ومع ذلك لا أحد نسب اليه أثراً يخل اخلالا كبيرا بما يقولون أنها الظواهر العامة لنمو الإنسان منذ ولادته فسيولوجيا وعقليا . أما الذي حصلناه اجتهادا فهو باختصار شديد:

ان نمو جسم الانسان ، لا يتم بمعدل سرعة ثابت بعد مولده . فقياسا على متوسط معدل سرعة النمو بين الإفراد من كل سن، ينمو الطفل، طولا ووزنا، نمواً سريعاً خلال السنة الأولى من عمره ، ثم يبطيء نموه حتى الخامسة ، ثم يسرع كرة أخرى حتى سن السابعة ، ثم يهدأ وينمو نمواً بطيئاً مطرداً حتى سن الثانية عشرة ، ثم يقفز نمواً حتى يبلغ السادسة عشرة . بعدها يبدأ معدل سرعة النمو في الهبوط حتى يتوقف تقريباً في سن الواحدة والعشرين (أوليفر هوبلر : الشباب : ١٩٣٧) . إلا المخ فإنه يستمر في النمو وزناً حتى يصل إلى أقصى درجة نموه في الفترة ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين (مارتن البرت – علم الاعصاب الاكلينكي في الشيخوخة : ١٩٨٤) .

أما في مجال الذكاء، الوجه الثانى لعملة الانسان، فطبقا لما لاحظه بياجيه من إختبارات الذكاء التي أوردها في كتابه " أصل الذكاء عند الأطفال: ١٩٥٣ " ، وما أورده جاستون فيسو في كتابه عن " الذكاء و تطوره، وأشكاله : ١٩٥١" : وما جاء في كتاب "علم نفس التمريض: ١٩٧١" تأليف جينفر جارفي وجون جبسون، وما هو وارد في الموسوعات المتخصصة يبقى الذكاء ملكة كامنة في الطفل منذ ولادته ثم تنمو بسرعة كبيرة ابتداء من سن الثالثة حتى سن السادسة ثم يتصاعد نموها تدريجياً حتى نهاية سن الرابعة عشرة . ولا ينمو بعد ذلك الا بدرجة تافهة لا يعتد بها ويثبت نموه حتى سن الثلاثين .

هكذا يقول لنا هؤلاء العلماء المتخصصون . أول ما يهمنا في هذا الحديث وهو أنه فى سن الخامسة عشرة يبلغ الانسان أقصى درجات نموه الفسيولوجي والعقلي . وينبه أوليفر هوبلر الى أن ثمة علاقة ارتباط بين مراحل النمو الجسماني ومراحل نمو الذكاء تبدو واضحة من أن النمو الجسمانى يسبق نمو الذكاء .

ثم يعودون فيقولون إنه بنهاية سن الثلاثين تبدأ- في الجانب الفسيولوجي- عملية تنازلية لوزن المخ فيفقد نحو ١٠٠.٠٠٠ خلية كل يوم ولا يعوضها، كما يقل عدد الخلايا والتغيرات في العضلات وتستبدل بألياف، ويبدأ القصور في وظائف الأعضاء كلها، وفي الدورة الدموية، وفى الهرمونات التي تفرزها الغدد الصماء وتقل السوائل في الخلايا فتظهر التجعد ات.. الخ .

أما في مجال الذكاء فبينما يزداد مضمونه من المعلومات والمعرفة والخبرات أو ما يسمونه الحصيلة اللفظية، تنخفض كفاءة الملكة ذاتها، أو كفاءة أدائها، نتيجة لانخفاض ما يسميه مارتن البرت " الذكاء السائل ".

وهكذا يقول لنا هؤلاء العلماء المتخصصون. ثاني ما يهمنا في هذا الحديث وهو أنه بنهاية سن الثلاثين يبدأ الانسان في الفقدان التدريجي لقدرته الفسيولوجية ولملكة الذكاء أيضا. وهو فقدان قد يخفيه عن صاحبه وعن الملاحظة الخارجية أيضا نمو المهارة وتراكم المعرفة ولكنه لا يخفى على المقاييس العلمية.

١٤- بناء على ما تقدم نستطيع أن نطمئن الى القول بأن الانسان يمر بفترة تبدأ من بداية سن السادسة عشرة حيث يبلغ أقصى درجة نمو يصلها الجسم و الذكاء معا وتنتهي مع سن الثلاثين حيث تبدأ قدرته الفيزيولوجية وذكاؤه أيضا في التناقص . ونسمي هذه المرحلة مرحلة " الشباب " حيث لا يختلف أحد على أن الشباب يتميز بأنه اكثر حيوية من باقي مراحل العمر. هذا بدون أن ننسى ما نبه اليه هنري برجسون فى مقالته "مقدمة للميتافيزيقا " (نشرت عام ١٩٠٣) من أن حياة الانسان منذ مولده حتى وفاته هي حالة صيرورة قد تبدو لمن يتأملها كما لو كانت مراحل متتابعة ، ولكنها في الحقيقة مكونات لحياة واحدة ، فليس ثمة بداية أو نهاية قطعية لأية مرحلة بل أن كلاً منها ممتدة في الأخرى .

هذا هو الشباب ، والحديث الآن عن الشباب العربي .

(٢)

الشباب العربي

الكم :

١٥- طبقا لبيانات مركز التوثيق والمعلومات بالجامعة العربية بلغ عدد الشباب العربي عام ١٩٨٠ ، - قياساً على الفترة الزمانية التي حددناها - ، نحو اثنين وأربعين مليوناً ونصف المليون شاباً موزعين فيما بين الدول العربية (مصر : ١١.٥٥٢.٦٠٠ . المغرب : ٥.٥٩١.٥٢٤ . السودان : ٤.٨٣٠.٠٧٨ . الجزائر : ٣.٦٩٩.٢٨٩ . العراق : ٣.٤٤٧.٦٧٠ . سورية : ٢.٤٦١.٨٣٢ . السعودية ٢.٤٠٦.٦٨٨ . تونس : ١.٨٣٣.٨٤٢ . اليمن الشمالية ١.٣٣٧.٨٨٩ الصومال ١.١٣٨.٩٢٧ . الاردن : ٨١٤.٧٨٦ . ليبيا : ٧٤٦.٤٨٩ . لبنان ٧٣٢.٨٧٠ اليمن الجنوبية : ٤٦٠.١٤٥ . موريتانيا : ٤٢٨.١٢٢ . عمان : ٢٢٩.٥٢٢ . الامارات : ٢١٠.٧٦٨ . البحرين : ١٠٠.٣٢٦ . قطر ٧٢.٥٣٣) أي نحو ربع عدد الشعب العربي .

هذا بالرغم من أن نسبة وفاة الاطفال – شباب المستقبل – في السنة الأولى من مولدهم هي طبقا للمعيار الدولي " مرتفعة جداً " (من ١١٠ الى ٢١٠ من كل ألف) في تسع دول عربية هي اليمن الشمالية (٢٠٠) والصومال (١٥٠) وموريتانيا (١٤٠) واليمن الجنوبية (١٤٠) وعمان (١٣٠) ومصر (١٢٠) والسودان (١٢٠) والجزائر (١١٠) والسعودية (١١٠) . وهي طبقاً لذات المعيار " مرتفعة " (من ٦٠ الى ١٠٠ من كل ألف) في خمس دول هي ليبيا (١٠٠) وتونس (١٠٠) والعراق (٨٠) والاردن (٧٠) وسورية (٦٠) . ولا تبقى إلا ثلاث دول تنتمي الى درجة " متوسط " هي الامارات (٥٠) ولبنان (٤٠) والكويت (٣٣) ...

مع أن هذه النسبة هي ٧ في كل من السويد واليابان وفنلندة و٨ في النرويج وسويسرا .. الخ .

على أي حال العبرة ، حتى في البشر ، هي دائماً بالكيف وليس بالكم دائماً . ألم نلحظ كيف ان عدد الشباب العربي ، وحده ، يبلغ خمسة عشر ضعف عدد الصهاينة في فلسطين المحتلة شيوخاً وكهولاً وشباباً وأطفالاً ؟ .. بلى . فلنعد اذن الى الشباب العربي علّنا واجدون سبباً لعدم اتساق الكم مع الكيف ، فهذا أولى بالحديث .

١٦- في طريق عودتنا الى الحديث عن الشباب العربي يعترضنا سؤال تنشعب منه عدة اسئلة . السؤال هو : هل يصح الحديث عن الشباب مميزاً بوصف عربي ؟ ثم تنشعب الاسئلة : أليس الشباب هو الشباب بالمعايير العلمية التي ذكرت ؟ ... وإذا كان لا بد من التمييز بالانتساب الى الظروف الاجتماعية المتخلفة أفليس الشباب هم الشباب في العالم الثالث المتخلف الذي ينتسب إليه العرب ؟ ... وإذا كان لا بد من التمييز بالانتساب الى المجتمعات المنظمة دولاً أفليس الشباب في كل دولة عربية هم غير الشباب في الدول العربية الأخرى ؟ .. وإذا كان لا بد من التمييز بالانتساب الى ما هو اضيق من هذا مجالاً فهل يستوي الشباب في المدن والشباب في الريف والشباب من البدو في الصحاري ؟ .. وهل يستوي الطلاب وهم شباب والشباب من

الأميين ؟ .. وهل يستوي الشباب من الذكور والشباب من الاناث ؟ .. وهل يستوي الشباب المترفون والشباب المدقعون ؟ .. الخ ..

وكلها اسئلة مشروعة .

والجواب عليها واحد : يمكن ويصح الحديث عن الشباب من خلال ما يؤثر فيهم وما يتأثرون به . والمؤثرات كثيرة . ويمكن ويصح الحديث عن تمايز الشباب لينتهي الى مقولة صحيحة وبسيطة : إن كل شابين متمايزان على وجه أو على آخر لأن التطابق بين البشر محال . والعبرة في النهاية بما يختاره كل متحدث عن الشباب موضوعاً لحديثه . ولقد اخترنا أن نتحدث عن الشباب في موضوع الانتماء . لن نقول الآن لماذا كان هذا الاختيار بل سنترك الجواب للحديث ذاته . فقد نكتشف في النهاية أن الانتماء يمثل مشكلة مشتركة بين كل الشباب في الوطن العربي ، وأنها المصدر الاساسي لأغلب مشكلاته ، وإنها – أخيراً – تكاد تكون مقصورة على الشباب العربي دون شباب العالم كله .

ويكون السؤال الاعتراضي ذو الشعب قد أدخلنا في موضوع الحديث لنعرف أولاً ماهو مفهوم الانتماء وعلاقته بالشباب خاصة .

(٣)

الانتماء

الشخصية :

١٧- إن أول صعوبة تصادف الحديث عن الانتماء هي تعريفه . والواقع أن تعريف الظواهر الاجتماعية بالذات مخاطرة غير مأمونة . ذلك لأن من أحكام التعريف أن يكون جامعاً مانعاً ، في حين أن الظواهر الاجتماعية متفاعلة متغيرة ذوات تاريخ قد يمتد إلى أعماق التاريخ . فتعريف الظاهرة الاجتماعية تعريفاً مانعاً غيرها أمر بالغ الصعوبة . هذا من ناحية . ومنت ناحية أخرى فإن تعريفها يقتضي عزلها ولو مؤقتاً . وعزلها يقتضي معرفتها أولاً . ومن هنا فإنا نعتقد أن المعرفة تسبق التعريف في كل الحالات . فلنؤجل إذن مغامرة التعريف ولنقنع الآن بمحاولة المعرفة .

١٨- المدخل الى معرفة الانتماء هو التعرف على عناصر تكوين الشخصية . ويستعمل علماء النفس في حديثهم عن الشخصية لفظين متلازمين هما الوحدة والتفرد . يعنون بالوحدة جماع الشخص . أي الشخص كله بكل مكوناته الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية . ويعنون بالتفرد ما يميز الشخص عن الآخر من بين هذه المكونات .

ويكاد يجمع علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الاجناس البشرية والاخصائيون في فروع تلك العلوم على أن الهيكل الأساسي لبناء شخصية الانسان يكون قد اكتمل حين يبلغ سن السادسة عشرة . كل ما يكتسبه بعد ذلك ويتميز به هو بناء حول هذا الهيكل لا يقوم معتدلاً مستقراً إلا بقدر اتفاقه نوعاً وكماً مع هيكله الاساسي .

ولقد عرفنا من قبل أنه في تلك السن يبلغ الهيكل الفسيولوجي للشخصية أقصى درجات نموه . كما عرفنا أنه في تلك السن أيضاً تبلغ ملكة الذكاء وهي الهيكل الأساسي للمكتسبات العقلية أقصى درجات نموه . بقي الهيكل الاجتماعي للشخصية . وتبعاً لما هو مجمع عليه من اكتمال الشخصية في سن السادسة عشرة يمكن القول بأن الهيكل الاجتماعي الاساسي لتكوين الشخصية يكون قد اكتمل نمواً حين يدخل الانسان مرحلة الشباب .

١٩- والهيكل الاجتماعي الأساسي للشخصية يتكون من مجموعة الضوابط الذاتية ، أي الداخلية في تكوين الشخصية ذاتها ، والتي تتحكم وتحدد لكل فرد موقفه واتجاهه وسلوكه في مواجهة الغير من الأشياء والظواهر والناس ، أي من المجتمع ذاته .

من أين تأتي هذه الضوابط ، وكيف تدخل في تكوين الشخصية ؟ إن الجواب سيقودنا الى حيث نعرف الانتماء وقد نعرّفه . وفي البحث عن الجواب نعود إلى ماهو مجمع عليه من ان المجتمع هو مصدر تلك الضوابط . إنه يدس بذورها في نفس الطفل وهو بعد كائن بيولوجي لم يميز حتى ذاته . ثم يتابع الطفل في نموه الفسيولوجي والعقلي داساً في تكوينه بذور ضوابطه بذرة بذرة . راعياً لها ومنميها . حتى إذا بلغ الطفل أشده واكتمل تكوينه كان ذلك الكائن الذي خلقه الله انساناً قد خلقه المجتمع شخصية متميزة عن غيره من بني الانسان .

أما مصنع هذا الخلق الجديد ، او أداة تشكيل الشخصية المتماسكة من شمع الانسان اللّن كما اختار ان يقول فيكتور بالدريج ، فهو الأسرة . الأم أولاً ثم الأب معها ثم الأخوة والمرافقون الأقربون . هذه أيضاً حقيقة علمية لم ينكرها أحد منذ مطلع القرن العشرين . وقد تأكدت أولوية تأثير الأم في الخلق الاجتماعي من أن الطفل لا يدرك ذاته منفصلة عن ذات امه بالولادة بل بعد ذلك بوقت طويل قد يمتد إلى عامين . خلال هذين العامين ، أو أقل قليلاً ، يتأثر تأثراً قوياً وتلقائياً بها كمصدر اشباع حاجته البيولوجية ، كما تنتقل إليه على وجه يكاد يكون عضوياً أو ميكانيكياً آثار نبرات صوتها وتعبير وجهها ولمسات يدها . وينفعل انفعالاً مباشراً غير شعوري بانفعالاتها تجهماً أو ابتساماً . ويحرك شفتيه ، أو يصدر أصواتاً أو يبكي في محاولة تكرار الشرط اللفظي للذة إشباع حاجته .

وحين تأتي الوثبة الكبرى في النمو الفسيولوجي في سن الثالثة كما ذكرنا من قبل يكون قد وعى ذاته وتعلم اللغة معاً . وعيه ذاته منفصلاً عن غيره يفسح مجاله النفسي لتلقي ضوابط علاقته مع الغير . الضوابط الاجتماعية . وتعلمه اللغة يمكنه من ادراك تلك الضوابط مجردة عن الموقف الآني في رموزها اللغوية ، فيحتفظ بها في ذاكرته النامية ويسترجعها كلما أراد أن يتصور او يتوقع متعلماً فيما بين الماضي المذكور والمستقبل المنظور الملاءمة بين ما يرغب في وقوعه وما يمكن أن يقع في عملية متنامية ويسمونها التكيف . كل هذا ومجتمعه الذي يدس في شخصيته بذور الضوابط الاجتماعية هو أسرته كمصدر اول وأساسي حتى بعد ان تضاف إليها المدرسة ورفاق الفصول . المهم أن الشخصية من خلق المجتمع وليست موروثة بيولوجياً ، وانها تكتمل تكويناً من خلال التعامل مع الآخرين وهم أساساً أفراد الأسرة ، وان هذا الاكتمال يتم في سن السادسة عشرة . لا خلاف على محصلة هذه الخلاصة وان يختلف العلماء تبعاً لتركيز كل مدرسة منهم على اسلوب دس هذه الضوابط الاجتماعية في تكوين الشخصية .

فثمة مدرسة " المرآة " التي أسسها شارلز كولي في كتابه " التنظيم الاجتماعي : ١٩٠٩ " التي تقول إن كل انسان يرى نفسه ويفهمها من خلال نظرات الآخرين إليه ويتعلم كيف يضبط سلوكه من خلال حكم الناس عليه وهكذا تنتقل الضوابط الاجتماعية إليه وهو يرى ويفهم ما يقبله الآخرون وما يرفضونه طبقاً لتلك الضوابط الاجتماعية ذاتها . وثمة مدرسة جورج ميد التي عرض نظريتها في كتابه " العقل والنفس والمجتمع : ١٩٣٤ " التي يركز فيها على دور اللغة في انتقال الضوابط الاجتماعية إلى الطفل من خلال الأسرة . وثمة المدرسة السلوكية التي يمثلها روجر براون في كتابه " علم النفس الاجتماعي : ١٩٦٦ " والتي ترى أن عاملي العقاب والثواب هما الموجهان للطفل حتى يتوافق سلوكه مع الضوابط الاجتماعية فيتعلم من الثواب وما يصاحبه من لذة ما هو مطلوب منه ويتعلم من العقاب وما يصاحبه من ألم ما هو ممنوع عليه . وثمة – أخيراً وليس آخراً – مدرسة التقليد التي شرحها باندورا وولترز في كتابهما " التعلم الاجتماعي ونمو الشخصية : ١٩٦٣ " والتي ترى أن الطفل يتمثل الضوابط الاجتماعية حتى تصبح جزءاً أساسياً في بناء شخصيته من خلال تقليده ، أو محاكاته ، تصرفات أفراد أسرته ... الخ ..

هذه الخلافات لا تهمنا كثيراً في هذا الحديث . الذي يهمنا الآن معرفة ما هي هذه الضوابط .

٢٠- لا يجدي حصر عددها ولا يمكن . لا يجدي لأنها مجموعة من المعارف تختلف كثيراً أو قليلاً وقد تتناقض من مجتمع إلى مجتمع . وبالتالي لا تكون محاولة حصرها مجدية – حتى إذا كانت ممكنة – إلا منسوبة إلى مجتمع معين . وحصرها غير ممكن لأنها مالا حصر له من المعارف . أقصى ما يمكن ان يقال عنها أنها معرفة قواعد سلوك مميزة ما بين الصواب والخطأ في التعامل مع الأشياء والناس والوجود الشامل الأشياء والنفس معها . تنتمي إليها الأديان والمعتقدات والشرائع والتقاليد والآداب والقيم والمعايير الجمالية للفن والأدب والموسيقى والعمارة .. إنها كل تلك المعارف التي تسمى مجتمعة حضارة . والتي تحدد المعايير الاجتماعية التي تحدد للانسان في كل مجتمع ما ينبغي ان يكون عليه موقفاً واتجاهاً ومسلكاً وما يتوقعه من الآخرين . وهي التي تفسر وتبرر وتجمل تلك المعايير .

والحضارة نظام معرفي وليست شخوصاً خارج الانسان . إن ماهو خارج الانسان من تراث وصروح هي منجزات الحضارة ودلائلها . وبينما يترك كل جيل من كل مجتمع آثاراً باقية تجسد الحضارة وتدل عليها وتحكي تاريخها تبقى الحضارة جزءاً من تكوين الشخصية في كل جيل . فمن خصائص الحضارة انتقالها من جيل الى جيل فيما يقال له تواصل الاجيال . الآن نعرف كيف يتم هذا التواصل ولماذا ؟ إنه يتم من خلال تلقي الأطفال المعرفة الحضارية عن مجتمعهم بالترغيب أو التهديد أو التقليد .. لا يهم . المهم انهم يتلقونها غير واعين . من آباء وأمهات تلقوها حين كانوا اطفالاً غير واعين ، عن أجداد تلقوها غير واعين عن أسلاف كانوا يتلقونها أطفالاً غير واعين . وتلعب اللغة الدور الأساسي في حمل الحضارة من جيل الى جيل وضمان استمرارها ..

يقول وليم مكدوجال في كتابه " علم النفس – دراسة في السلوك : ١٩٤٧ " : " ينمو كل انسان سوي تحت التأثير المستمر للمجتمع الذي ولد فيه ، ويشكل المجتمع كل جزئية من تطوره الذهني . فيصبح وارثاً لصرح من التقاليد الثقافية والخلقية قام بناؤه بطيئاً بإضافة لبنة إلى لبنة

خلال الجهود التي بذلتها آلاف الأجيال .. ان اللغة هي أكثر أجزاء التقاليد الثقافية أهمية . انها أداة وشرط أية مكتسبات لاحقة . ان الطفل من خلال تعلمه لغته القومية يستطيع ان يحصل من المعرفة أكثر مما يستطعيه الرجل البالغ من خلال تمكنه أجادة لغة اجنبية . ان هذا الأخير لا يفعل إلا أن يعبر عن الشيء المألوف بألفاظ جديدة . اما الطفل فبتعلمه كيف يستعمل الكلمات يتعلم ايضاً كيف يحول كل العالم الذي حوله الى اشياء ويكتشف مميزات كل منها والعلاقات فيما بينها . وليس كل تلك الاشياء والمميزات والعلاقات الا انتقاء من بين العدد اللانهائي الذي قد يكتشفه عقل كامل النضج . ولكن الطفل لا ينتقي أساساً إلا ما يعتبر من أساسيات حضارة مجتمعه مقوداً في ذلك باللغة التي خلقها أسلافه الاقدمون للتعبير عن تلك الأوجه المنتقاة من العالم . ويرث الطفل السوي من مجتمعه أيضاً عدداً كبيراً من المعتقدات المتعلقة بما انتهى الى اكتشافه من اشياء . وسيبقى الطفل حاملاً تلك المعتقدات طوال حياته كلها بدون تساؤل عن صحتها أو حتى بحث عن كيف اصبحت معتقداته .. "

ويقول برجسون في كتابه " التطور الخالق : ١٩٠٧ " إننا نرغب ونريد ونعمل بماضينا كله .

ويصوغ عالم النفس السوفييتي ميخائيلوف ذات المفاهيم صياغة طريفة في نهاية كتابه الرائع " لغز النفس : ١٩٨٠ " فيصور انسانا يحدث نفسه وهو على عتبة مدخل مرحلة الشباب فيقول : الآن أنا قادر على أن أقوّم نفسي وسلوكها حتى في مواجهة أكثر المواقف تعقيداً ، إذ أنني بصفة أساسية ، الخلاصة الكلية لخبرة النشاط المعقد التاريخي الذي انتهى إلىّ ويعيش داخلي كما تضمنته لغة أمتي ، فبالاضافة إلى أصدقائي وأولياء أمري ومعلمي واساتذتي لي محاورون وموجهون ومساعدون في أولئك الذين واجهوا اصعب المشكلات وحلولها خلال القرون الماضية .

ان هذه الصورة الشعرية قد تولد وهما بأن الحضارة كهيكل اجتماعي أساسي للشخصية منظم احتياطي للسلوك يلجأ إليه الشخص أو لا يلجأ . الواقع العلمي غير ذلك ، إن الانسان يتلقاها بدون ارادة وهي تنظم وتضبط سلوكه بدون انتباه ويستجيب لها تلقائياً بدون جهد ، ويتبع توجهيها بسلاسة اتباع ما هو " طبيعي " لا شذوذ فيه ، لأنه حينئذ لا يتبع إلا ذاته .

ويكون هذا هو الانتماء .

فالانتماء علاقة موضوعية بين شخصية الانسان ومصدر نموها الحضاري .

جدل الانسان

٢١- يقول الفيلسوف الالماني هيجل ، أواخر النجوم اللامعة بين المفكرين كما قال عنه هرتزن ، يقول في " مؤلفات الشباب الدينية : ١٩٤٨ " بالانجليزية " إن تعبير ابن قبيلة قريش " الذي يستخدمه العرب للدلالة على فرد من اعضاء تلك القبيلة لا يعني أن هذا الفرد جزء من كل فحسب ، ومن ثم لا يعني أن هذا الكل يقوم خارجه ، ولكن يعني ان هذا الفرد هو نفسه الكل . إنه والقبيلة شيء واحد .. أن كل فرد عند العرب ، كما هو الحال عند الشعوب الحرة جميعاً ، جزء ولكنه في نفس الوقت هو الكل . (قال هيجل هذا قبل مطلع القرن التاسع عشر) .

ويفسر هيجل هذه المقولة التي وحدت بين الفرد والمجتمع طبقا لمنهجه الجدلي المثالي فيما جاء في حديثه عن الحرية في مؤلفه " فلسفة القانون : ١٨٤٣ بالانجليزية " ، أن حرية الارادة تبدأ بأن تحقق نفسها في الواقع حتى لاتظل مجردة . ولكنها تدرك ان هذا التجميد الفردي في الواقع قيد عليها ، فتحاول ان تصبح اكثر شمولاً ، بأن تتحد مع حريات الآخرين فتصبح حرية جماعية في صورة العائلة . ومن التناقض بين الحرية من ناحية وانحصارها في الواقع العائلي من ناحية أخرى تتجه الحرية الى مزيد من الشمول لتتحد في حرية المجموع .

لدينا أسباب تحملنا على ألا نقبل تفسير هيجل لكيفية التوحد بين الفرد ومجتمعه على إطلاقه . ومن بينها ان هيجل ، متأثراً بفلسفة المثالية وفي نطاقها ، قد نسب التوحد إلى إرادة الفرد . ونسب ذلك التطور الصاعد من الفرد إلى الجماعة إلى جدلية الارادة وهذه هي جرثومة المثالية التي تخضع المادة للفكر فهو يتطور اولاً تطوراً جدلياً وهي تتبعه الى حيث هو متطور . تطبيقاً لهذا لا يكون " ابن قبيلة قريش " قد اصبح ابن قبيلة قريش إلا لأنه أراد أن يتحرر من قيود أسرته . أما لماذا اختار أن يكون ابنا لقبيلة قريش بالذات ، ولم يختر غيرها ، وما هو الدور الذي لعبته قبيلة قريش دون غيرها من القبائل في هذا الاختيار فإن المنهج الجدلي المثالي لم يسمح لهيجل بأن يجيب على هذه الاسئلة أجوبة مقنعة . على أي حال أن كل ما قدمناه من دراسة في ظاهرة الانتماء – وهو قريب من مفهوم التوحيد الذي هو أثر له – قد انتهى الى أن الانتماء سابق على الارادة وموضوعي غير متوقف عليها ، فيبقى علينا أن نعرف جدلية الانتقال من الانتماء الفردي الى حضارة معينة الى الانتماء الى مجتمع معين .

٢٢- يقول منهج جدل الانسان : " (١) في الكل الشامل للطبيعة والانسان : (٢) كل شيء مؤثر في غيره متأثر به . (٣) كل شيء في حركة دائمة . (٤) كل شيء في تغير مستمر . (٥) في إطار هذه القوانين الكلية الثلاثة يتحول كل شيء طبقا لقانونه النوعي . (٦) وينفرد الانسان بالجدل قانوناً نوعياً لتطوره . (٧) في الانسان نفسه يتناقض الماضي والمستقبل . (٨) ويتولى الانسان نفسه حل التناقض بالعمل . (٩) اضافة فيها من الماضي والمستقبل معاً . (١٠) ولكن تتجاوزهما الى خلق جديد " .

تطبيق .

٢٣ – لقد عرفنا ، ونحن نتحدث عن الضوابط الاجتماعية ، أن الطفل يبدأ ما نسميه الآن تطوره الجدلي منذ وعيه ذاته وتعلمه لغته في نحو السنة الثالثة من عمره ، إذ أن " تعلمه اللغة يمكنه من إدراك تلك الضوابط مجردة عن الموقف الآني في رموزها اللغوية فيحتفظ بها في ذاكرته النامية (خزانة الماضي) ويسترجعها كلما أراد أن يتصور أو يتوقع (في المستقبل) متعلماً فيما بين الماضي المذكور والمستقبل المنظور (من تناقض) الملاءمة بين ما يرغب في وقوعه وما يمكن أن يقع (الخلق الجديد) . مدى هذا الجدل الانساني يتوقف على درجة نمو الذاكرة والمخيلة في الطفل . والدالة على درجة نموه هو الفترة الزمانية المقبلة التي يستطيع أن يخطط لها (مدى تصوره) . يقول جون بولي في كتابه " رعاية الطفل ونمو الحب : ١٩٥٣ " إن الطفل يستطيع فيما بين سن العاشرة والثانية عشرة أن يضع خططاً لتحقيق رغباته المقبلة على مدى بضعة أشهر وأنه ابتداء من السادسة عشرة تنطلق مقدرته على التخطيط المجرد من قيود الزمان والمكان .

انها مرة أخرى سن السادسة عشرة بداية مرحلة الشباب . فلنبدأ منها .

٢٤ – في سن السادسة عشرة يكون الانسان قد اكتمل شخصية منتمياً إلى حضارة متميزة . هذا عرفناه . وعرفنا معه أن اكتمال الشخصية هذا يعني أن الشخصية قد اكتسبت خلال المرحلة السابقة ، ما أصبح هيكلاً أساسياً اجتماعياً لها من معرفة قواعد سلوك مميزة ما بين الصواب والخطأ في التعامل مع الاشياء والناس والوجود الشامل الاشياء والناس جميعا تنتمي اليها الاديان والمعتقدات والشرائع والتقاليد والآداب والقيم والمعايير الجمالية للفن والآداب والموسيقى والعمارة ... إلى آخر ما يطلق عليه معا الحضارة .

من هنا يبدأ الشاب مسيرته الى المستقبل . فكيف " يتصور " هذا " المستقبل " . إنه يتصوره محدداً شكلاً ومضموناً بما يتفق مع المعايير الحضارية الكامنة في ذاته . إنه لا يتصوره هكذا لأنه يريده كما قال هيجل ولكن لأنه لا يستطيع تصوره إلا هكذا . أنه التصور المنبثق من ذاته المتسق مع شخصيته . ولكن ذاكرته ما تزال مليئة بما يستطيع أن " يسترجعه " من " الماضي " القريب . إذ هو فرد من مجتمع صغير تربط أفراده روابط حميمة بيولوجية وفكرية ونفسية وعاطفية . إنه قد شب منتمياً الى المجتمع الذي صاغ شخصيته فلا يتصور إنسان نفسه إلا منتمياً إليه . ولكنه في الواقع منتم إلى أسرة . حينئذ يدرك من الصراع النفسي الذي يشعر به الناشئة من الشباب أن ثمة تناقضاً بين الانتماءين . فيكون الحل الصحيح لهذا التناقض إضافة فيها من الماضي (الأسرة) ومن المستقبل (المجتمع) ولكن تتجاوزهما الى خلق جديد . الانتماء الى مجتمع تكون الاسرة وحدة تكوينه . فينزع الشباب نزوعاً تلقائياً إلى تكوين أسرة تكون أداة المجتمع في نقل الحضارة التي صاغه المجتمع من عناصرها إنه كشخصية ، حين ينقل إلى طفله الحضارة التي ينتمي إليها، ينقل إليه فى الواقع ذاته، فلا يفسر صبر الآباء على عناء الأبناء إلا بما يحققونه فيهم وبهم من مغالبة الفناء. ويفنى هو بيولوجيا وتبقى الحضارة ممتدة في الأجيال المتعاقبة..

من هنا تعرف لماذا يعتبر كثير من علماء الاجتماع أن النزوع إلى الزواج من علامات الدخول فى مرحلة الشباب. إنه حينئذ ليس مجرد رغبة في إشباع غريزة جنسية كانت في أوج توهجها قبل إدراك مرحلة الشباب بسنين بل هو تطوّر حضاري تنظم شريعته وطقوسه وآدابه معايير تختلف من مجتمع إلى مجتمع . لا يغنى عنه الاشباع المباح للغريزة الجنسية. فما تزال الأسر قائمة في بلاد الاسكيمو بالرغم من أن الرجال يقدمون زوجاتهم لمتعة ضيوفهم ويعتبرون رفض التمتع الجنسي بهن إهانة. وما تزال الأسر قائمة في جزر الماركيز بالرغم من حق الزوجة في أن تضيف إلى أفراد الأسرة عشيقها كما يفعل الزوج . وما تزال الأسر قائمة في غانا بالرغم من أن الزنى مباح بشرط منع الحمل . إنما الزواج في جوهره اتفاق بين طرفيه على تكوين أسرة توفق في شخصيهما بين الانتماء إلى الأسرة والانتماء إلى المجتمع في الوقت ذاته فينتهي الصراع النفسي الذي يولده التناقض بين الانتماءين فتسكن نفساهما (ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [الروم : ٢١] (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) [النساء : ١] . صدق الله العظيم .

الانتماء القومي

٢٥- مما تقدم نعرف أيضاً أن الانتماء إلى المجتمع لا يلغي الانتماء إلى الأسرة بل يشمله . ولكن أي مجتمع ؟ .. بنهاية الاجابة عن هذا السؤال سنصل الى معرفة وثيقة بالشباب العربي ولماذا نصفه بأنه عربي . ذلك لأننا ، حتى الآن ، حددنا الانتماء بأصله الحضاري ، وحددنا الحضارة بعناصرها الممتدة عبر الاجيال من كل مجتمع ، وعرفنا أنها تختلف من مجتمع إلى مجتمع فإلى أي مدى يمتد هذا الانتماء وعند أي حد تفترق المجتمعات وتتميز الحضارات فتتعدد الانتماءات .

يمكن الوصول الى الجواب الصحيح على هذا السؤال عن طريقين . تتبع نشوء وتطور الحضارات إذ كل حضارة تميز مجتمعها، أو تتبع نشوء وتطور المجتمعات اذ كل مجتمع متميز بحضارته. ونحق نفضل الطريق الثانى لأنه ادنى الى تحقيق ما نريد أن نصل إليه من هذا الحديث عن الشباب العربي وإليهم، ثم إنه اكثر يسرا لأننا سنعيد فيه ما قلنا، ولم نكف عن تكراره، منذ نحو ربع قرن ونحن ندرس، وننشر ما تنتهى إليه دراستنا، عن تكوين الأمة العربية.

قلنا في كتابنا " نظرية الثورة العربية " : عن نشوء وتطوّر الأمم عامة.

" ... قد تكون الرابطة الأولى التي جمعت بين إثنين هي الاجتماع على حل مشكلة " حفظ النوع " التى يؤدي حلها إلى أن يضاف إلى الاثنين ثالث فتوجد الأسرة ثم العائلة ثم السلالة.. الخ. تلك وحدة الأسرة تظل واقعا مشتركا بين الناس تميزهم عن غيرهم حتى يتجاوز العدد- في الزمان- ما يميز الناس بأصلهم الواحد فتتوه الأنساب المشتركة في الكثرة. غير أن مجرد إجتماع اثنين، ولو على مشكلة حفظ النوع ، ينشيء مشكلة مشتركة جديدة على كل منهما، أي أنها وليدة التناقض بين إجتماعهما فى مشكلة واحدة وانفصالهما – كل منفرد بذاته – في الوقت نفسه ، مضمونها كيف يفكران ويتبادلان الرأي ويسهمان في حل مشكلتهما الأولى . وقد حلت تلك المشكلة الجديدة بأول إضافة رائعة ابتكرها الانسان ونعني بها اللغة . فعن طريق اللغة أمكن الوصول – بين المتعددين – إلى وحدة الادراك والفكر والعمل لمواجهة المشكلات المشتركة . وباللغة وجد التطور الاجتماعي أولى أدواته . فانطلقت كل أسرة تواجه- مجتمعة- ظروفها المشتركة وتحقق مستقبلها المشترك . ثم يستمر النمو بالتعدد، وتتعدد المشكلات ، وتتنوع في مضامينها، بحيث تتجاوز في اتساعها، وفى مضمونها، رابطة الدم التي تصبح عاجزة عن أن تجمع جهد كل الأسر ، والعشائر لحل المشكلات المشتركة فيما بينها ولتحقيق مصالحها المشتركة ، فتتكون المجتمعات القبلية حلاً لمشكلات مشتركة بين أفراد كل قبيلة ، وتكون القبيلة بذلك طوراً جديداً ، نامياً ، يتجاوز بمقدرته المشتركة مقدرة الأسر فيه على حل المشكلات المشتركة .

" فقد أتى على الانسان حين من الدهر، استنفده فى الصراع ضد الظروف الطبيعية للحصول على ما يحفظ حياته من ناتج الأرض والصيد . وكان شكل صراعه متابعة ثمار الطبيعة المتاحة تلقائيا إلى حيث هي ، والبقاء المؤقت على الأرض حيث يجدها ، إلى أن تنضب فيهجرها إلى

مكان آخر من الأرض ، كانت الهجرة تغييرا للظروف المادية (الطبيعية) بالانتقال من مكان إلى آخر. وبالهجرة وخلالها، التقى بجماعات أخرى تسعى وراء الغاية ذاتها . فيلتقيان على مصدر إنتاج واحد فيقتتلان عليه. وبغلبة أحدهما يدخل مرحلة من التطور بدأت بحل مشكلة التزاحم فيستقر على الأرض و يبدأ في مواجهة المشكلات الجديدة التى تطرحها ظروفه الجديدة. فيبتكر في الأرض التي استقر عليها ما يحل مشكلات جمع نتاجها وتخزينه وتوزيعه وحراسته من فؤوس ومنازل وحراب ونبال .. الخ . وإذ يكون هذا هو الطريق الوحيد لحفظ الحياة وإشباع حاجاتها المتجددة، يصبح جهد الأسر والعائلات قاصرا عنها فيكون الحل الحتمي أن تتجمع الأسر والسلالات والعشائر- تدريجيا ومن خلال مواجهة المشكلات ذاتها- لتكون قبائل ، أي لتكون بكثرتها ومقدرتها أقدر على حل مشكلات الظروف المشتركة. ويطرح تعدد الأسر و العشائر في المجتمع القبلى مشكلات جديدة تحلها القبيلة بما تضيفه من نظم و تقاليد وعادات تضبط سلوك الجميع ويحتكمون اليها فلا يتفرقون . وقد يتحقق لهم جميعاً نصر مشترك فيمجدون انتصار " قبيلتهم " على الطبيعة وعلى الأعداء شعراً وغناءً وألحاناً ... إلى ان ينضب رزق الأرض ، أو يغلبوا على أمرهم ، فتبدأ مرحلة جديدة من الصراع ضد الطبيعة والأعداء بهجرة جديدة يصاحبها قتال جديد .. الخ .

وهكذا كانت المجتمعات القبلية وحدات متماسكة داخلها، مهاجرة مقاتلة دائما.

ذلك هو الطور القبلي من المجتمعات: داخل المجموعة الانسانية الواحدة، تنفرد كل جماعة وحدة قبلية متميزة عن القبائل الأخرى بأصلها الواحد ولغتها الواحدة ثم بنظمها وتقاليدها وثقافتها القبلية. ولا تميزها عن غيرها " الأرض " التى تعيش فيها ، لتبادل المواقع من الأرض كرا وفرا خلال الصراع القبلي .

وقد انتهى الطور القبلي أو كاد أن ينتهى . فخلال أحقاب طويلة من الهجرة المقاتلة اهتدت بعض الجماعات والقبائل إلى الأرض الخصبة وأودية الأنهار فاستأثرت بها حلا لمشكلة ندرة الرزق التي كانت تعالجها بالهجرة من مكان إلى مكان . ولم تعد حركتها خاضعة لما تمنحه الطبيعة تلقائيا، بل " استقرت " على الأرض وابتكرت الزراعة وأدواتها. حينئذ افترق تاريخ الشعوب والمجتمعات ولم يعد من الممكن الحديث عن "التاريخ الانساني " أو " تاريخ البشرية" بل لا بد من تتبع كل جماعة على حدة لنعرف تاريخها الخاص على ضوء ظروفها الخاصة.

فالجماعات القبلية التي استقرت على أرض معينة خاصة بها دخلت مرحلة تكوين جديدة هي مرحلة تكوين الأمم ، التكوين القومي ، لتتميز بهذا الاستقرار على أرض خاصة عن الطور الذي سبقها. الطور القبلي " غير أن هذا لا يعنى أنها قد أصبحت امما فنحن لا نقول أن أية جماعة من الناس لها لغة مشتركة وتقيم فى منطقة معينة من الأرض قد أصبحت أمة بل ننظر إلى المجتمعات خلال تطورها الجدلي وحركتها التى لا تتوقف من الماضي إلى المستقبل . فالأمة تدخل مرحلة التكوين باستقرار الجماعات القبلية (تحمل كل منها لغتها وثقافتها وتقاليدها) على أرض معينة ومشتركة وبها تحل مشكلة الهجرة وتتميز بالاستقرار على الأرض عن الطور القبلي . ثم تبدأ فى التكوين وتتحدد خصائصها خلال مواجهة المشكلات المشتركة والمشاركة في حلها. وقد تكون أول مشكلة واجهتها الجماعات المستقرة هي المحافظة على هذا الاستقرار. أي حماية الأرض المشتركة . ذلك لأن القبائل لم تستقر كلها في وقت واحد، بل بينما

استقر بعضها ودخل مرحلة التكوين القومى ظلت الجماعات القبلية الأخرى مهاجرة مقاتلة معا. تغزو أطراف الأرض التي استقر عليها الأولون فتقيم فيها مختلطة بسكانها الاصليين مبتدئين معا مرحلة من الحياة المشتركة المستقرة لن تلبث أن تكون منهم أمة واحدة . أو محاولة غزوها فمنحسرة عن حدودها. وقد يثير الغزاة حروبا مضادة تخرج فيها الجيوش لمطاردة المغيرين والقضاء عليهم وضم مراكز تجمعهم إلى الأرض الخاصة فتمتد حدودها ليشملها جميعا الاستقرار مقدمة لتكون أمة . وقد استمرت فترات الغزو القبلى وحروب المطاردة فترات طويلة من التاريخ عوقت تطور الجماعات المستقرة إلى أن تكون أمما مكتملة. وإن كانت قد أسهمت- من ناحية أخرى- فى أن يتجاوز المستقرون على الأرض الخاصة المشتركة، رواسب الطور القبلى فيلتحموا معا خلال العمل المشترك لحماية الأرض المشتركة في مواجهة العدو المشترك . وعندما تثبت حدود الأرض مؤذنة بانتهاء الصراع حول الاختصاص بها تكون تلك الحدود ذاتها حدوداً لما يليها من أرض خاصة بجماعات مستقرة أخرى .

الى هنا تكون قد توافرت للجماعة المستقرة على أرض معينة (الأمة في دور التكوين) وحدة اللغة ووحدة الأرض المشتركة . غير ان هذا لا يميزها عن غيرها من الجماعات المستقرة التى لها بالضرورة لغتها وأرضها. إنما تكتمل خصائص الأمة من خلال تكوينها القومي المنطلق من استقرار الشعوب على أرض خاصة. فتفاعل الناس مع الطبيعة ينتج حصيلة مادية (انتاج زراعي ، انتاج صناعي ، أدوات انتاج ، مبان .. الخ) وتفاعل الناس في المجتمع ينتج حصيلة اجتماعية من الأفكار والمذاهب والنظم والقيم والتقاليد والفنون ... الخ . والنظر الى هذه الحصيلة من تفاعل الانسان مع الطبيعة ومع غيره في المجتمع نظراً لما يسمى " الحضارة " . فإذا أضيف إلى هذا – في دور التكوين القومي – أن الطبيعة محددة بأرض معينة متميزة عن غيرها " وليست ممتازة " وان الناس قد تحددوا بشعب معين متميز عن غيره " وليس ممتازاً " كان مؤدى هذا التحديد أن حصيلة تفاعل الناس مع أرضهم الخاصة وفيما بينهم ستكون متميزة في مضمونها المادي والثقافي عن غيرها ، أي تكون متميزة " حضارياً " وتكون بذلك قد اكتملت " أمة " .

٢٦- يتضح مما سبق أن التكوين البشري للمجتمعات في حركة تطوّر مستمرة من العشيرة إلى القبيلة إلى الأمة ... إلى ما لاندري الآن كيف يكون التكوين في المستقبل غير المنظور . ما ندريه هو أن انتقال مجتمع من طور إلى طور لا يتم إلا بعد أن يستنفد الطور الذي قبله كل امكاناته المادية والبشرية لاشباع احتياجات البشر المادية والفكرية والروحية المتجددة أبداً . وهو امر قد يستغرق قروناً أو عشرات القرون تبعاً لظروف النشأة ومكانها والتأثير المتبادل بين المجتمعات المتعاصرة . ولكن كما يقول عالم الاجتماع أوستاش شبسر في كتابه " الحياة الناجحة : ١٩٥٢ " إن الاتجاهات الاجتماعية كانت دائماً متطورة من الأسرة إلى القبيلة إلى الأمة . تماماً كما هو الحال في الحياة العضوية التي تبدأ بالخلية وتنتهي نامية الى حيويات معقدة.

وأكثر ما ندريه أهمية بالنسبة إلى هذا الحديث أن الانتقال من طور إلى طور لا يتم إراديا بقرار فردى أو جماعي ، بل يتم تدريجيا على مدى القرون من خلال الكفاح الانساني الطويل لاشباع حاجاته وما يصاحبه من صراع داخلي وخارجي ضد الطبيعة وضد الناس . ومن خلال هذا التطور ذاته تتطور حضارة كل مجتمع مصاحبة تطوره لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه. فثمة

حضارة عشائرية، وثمة حضارة قبلية، وثمة حضارة شعوبية، و ثمة حضارة قومية..، إلى ما لا ندري الآن كيف تكون عليه الحضارة في المستقبل غير المنظور. المهم أنه في زمان معين في مكان معين يكون لكل مجتمع معين في الزمان والمكان حضارته لا تتخلف عنه كما لا تتخلف خصائص المادة عن أي من عناصرها في حالة نقائه. فهى الحضارة الملازمة، المناسبة، الملائمة، أفضل الحضارات بالنسبة إليه حتى بدون أن يعرف لماذا.

فنعرف أنه لا يساوي قلامة ظفر كل ما كتبه الغربيون وغير الغربيين عن التفاضل بين الحضارات المختلفة للمجتمعات المتعاصرة. كما لم يكن يساوي تلك القلامة كل ما اصطنعه الغربيون من لاهوت وفلسفات وأفكار عن " رسالة الرجل الأبيض في نشر الحضارة " بين الشعوب المتخلفه لتغطية الغزو الاستعمارى . لقد انكشف الغطاء بعد حجب الحقيقة الاستعمارية وراء حجب التفاضل الحضارى . وفهم حتى بعض الأوروبيين مدى الصدق فيما كان يقوله الصينيون القدامى بعد استماعهم إلى المبشرين بدعوتهم إلى نور الحضارة الأوروبية. كانوا يتهامسون- في أدب جم- بأن أولئك الأوروبيين مخلوقات غريبة وبدائية وبربرية وأقل تحضرا من الخنازير لأنهم، بالرغم من معرفتهم القراءة والكتابة، لا يستطيعون فهم تعاليم كونفشيوس.

أما عصر النهضة والاصلاح والتنوير الذي بهر كثيرا من المفكرين العرب ويحددون بدايته بالقرن السادس عشر وينسبون إلى جان كالفن السويسري أنه كان احدى مناراته، فلم يكن نهضة ولا إصلاحا ولا تنويرا إلا بالنسبة إلى الأوروبيين عامة وجان كالفن وأمثاله خاصة. ذلك لأنهم لم يكونوا متحضرين إلى الدرجة التى يفهمون بها ما كتبه ابن باجة وابن وشد وابن خلدون والفارابي والغزالي ومئات غيرهم من شموس النهضة والاصلاح والتنوير قبل القرن السادس عشر بقرون . لا ولا كان الأوروبيون متحضرين إلى الدرجة التي يدركون بها أن للأمراض عللا عضوية تدارى بالجراحة أو بالعقاقير كما كان يقول ابن سينا قبل أن يبدأ القرن السادس عشر بخمسة قرون (٩٨٠- ١٠٣٧).

في ٢٢ يناير ١٥٤٥ بدأ انتشار مرض الطاعون في مدينة جنيف بسويسرا فاعتبرته السلطة هناك نتيجة مؤامرة يقودها ساحر إسمه " لانتيل " وأعوانه بأوامر صادرة إليه من قائده الأعلى: الشيطان . فقبض على الرجل وسحل في الشوارع قبل أن تحرق جثته علنا، بدون محاكمة. وقبض على نحو أربعين من أعوانه و قدموا إلى "المحاكمة " وقضى بإعدامهم حرقا. فلما استفحل الداء و أصبح المرض وباء، حتى بعد إعدام السحرة المتهمين، لم يستطع أحد في جنيف أو غير جنيف أن يشك - مجرد شك كمقدمة للمعرفة- في أن قد يكون للمرض سبب آخر غير السحر. بل أصبحوا على يقين من أن ثمة سحرة متآمرون لم تصل إليهم يد السلطة . فاقتحم " الشعب " بيوت كل الذين أشارت اليهم شبهات ، نهبت البيوت أولا، ثم حرقت، ثم حرق المشتبه فيهم. أما خارج جنيف، فقد أعدم السويسريون كل وافد إلى مدنهم من جنيف خوفاً ، من أن يكون ساحرا متآمرا هاربا.. وكان كل ذلك متسقا مع حضارتهم .

أين كان جان كالفن ابن جنيف، المصلح الديني، داعية النهضة ومنارة التنوير؟.. كان واقفا أمام "المحاكم " يشهد ضد أكثر من مشبوه متهم بأنه ساحر ومسؤول عن نشر الطاعون يستحق الاعدام حرقا.

إنها الظلمات التي عاشت فيها أوروبا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية بدون شكوى من الظلام. فلما تطورت الحياة عبر القرون المظلمة واحتاجت أوروبا إلى النور استنارت. من هنا تسستحق حركة التنوير فى أوروبا أن يشيد بها الفلاسفة والمفكرون والناس جميعا من حيث هى تقدم حضاري هائل . ولكن - وهذا جوهري- فى حدود نسبتها إلى مجتمعها وليس إلى أي مجتمع غيره كان معاصرا للمجتمع الأوروبي في تلك القرون المظلمة.

٢٧- حين ندرك إدراكا واضحا نسبية الحضارات من خلال نسبة كل حضارة إلى مجتمعها، لا من خلال قياسها على حضارات أخرى ولو كانت معاصرة، نتحرر من الشعور بالنقص، ونتحرر من الغرور والتعصب والاستعلاء، ونحترم حضارة الشعوب، ونتوقع منها أن تحترم حضارتنا في الوقت ذاته . وسيفيدنا هذا كثيرا فى فهمنا مشكلات الشباب العربي ومعرفة الحلول الصحيحة لتلك المشكلات . ثم يلفتنا إلى مجتمعنا وحضارته الذي هو مصدر تكوين " شخصية الشباب العربي " ومجالها الحيوي ، فلنلتفت .

(٤)

الانتماء العربي

نحن أمة :

٢٨- إن أول ما نلتفت إليه أننا أمة عربية مكتملة التكوين. لا محل في هذا الحديث لاثبات هذا أو الحوار حوله. أعني أن هذا الحديث غير موجه أصلا إلى من ينكرون أو يشكون فى أننا، نحن العرب، قد تجاوزنا نموا الطور القبلي والشعوبي وأصبحنا منذ قرون أمة مكتملة التكوين منذ قرون. (منذ نهاية الحروب الصليبية على الأقل) .

ما الذي يعنيه هذا من بين ما يعنى به هذا الحديث. يعني، كبداية، ان الحضارة العربية حضارة قومية، لا عشائرية ولا قبلية ولا شعوبية. لدينا وفينا كل ما نقلته إلينا لغتنا من تراث حضاري موروث من الأطوار العشائرية والقبلية والشعوبية قبل أن نكون أمة في طور التكوّن إلى أن أصبحنا أمة . انتقل إلينا عبر الأجيال المتعاقبة في مسيرة تقودها اللغة من أطفال إلى أطفال إلى أطفال وتشكل بها شخصيات الشباب من جيل إلى جيل . ولكن لغتنا المتطورة أيضا لم تنقل إلى أي طور مررنا به الا ما يناسب اطراد النمو إلى الطور الذي يليه . إن الأهرام الخالدة أدلة على حضارتنا البائدة ولكنها لا تعني شيئاً بالنسبة الى حضارتنا السائدة .

وحين تم الفتح العربي الاسلامي فجمعنا في دولة ووفر لنا الاستقرار على الأرض الخاصة والتفاعل فيما بيننا وبينها ودخلنا به طور التكوين القومي إلى أن أصبحنا أمة نمت حضارتنا وأينعت وأثمرت عقائد وتقاليد وعادات وقيماً وآداباً وفنوناً متطورة متميزة عما سبقها بتلك الاضافات التي تميّز الحضارات القومية .

أهم هذه الاضافات ما يدخل فى عناصر الحضارة من واقع "الاختصاص بالأرض دون باقى البشر". أمتنا، وطننا. نمجد تاريخه، نطمئن فيه. نغترب بعيدا عنه. نحافظ عليه. نفديه بالحياة نعيش من خيره . نشترك معا، و دون غيرنا، في التمجيد والاطمئنان والاغتراب والمحافظة والفداء والخير . وتعبر أجيالنا المتتابعة عن هذا الانتماء والولاء والوفاء فكرا وأدبا وفنا وغناء

وموسيقى وأناشيد... وأحزانا ودموعا أيضا. إنه ليس أرضا ولكن تجسيدا ماديا لمفهوم دخل، في خلال التفاعل معه، ألى صميم تكوين شخصية كل عربي ، وأصبح جزءاً من هيكلها الأساسي الاجتماعي ، تحرسه ضوابط اجتماعية من التقاليد والعادات والقيم والآداب .. فنفرق تفريقا واضحا بين الاعتداء عليه وخيانته . مع أن الفرق بينهما لا يتضح إلا على ضوء الانتماء العربي الذي لا وجود له خارج أنفسنا . وقد نغفر للمعتدي اعتداءه بعد ان ندفعه ثم ننساه ، ولكن أبداً أبداً لا ننسى للخائن خيانته حتى لو لم تحدث أثراً خارجنا ، لأنها – في واقعها الحضاري – اعتداء على كل واحد منا في ذاته ، شخصيته العربية ، وهكذا بدون وعي ، أو بوعي يتجه الشباب العربي إلى المستقبل مقوداً بانتمائه العربي بدون أن يعرف كيف يقاد وإن كان يشعر أنه لا يقود إلا نفسه .

هل هذه مجرد استنتاجات نظرية من مقدمات علمية ؟

التطبيق محك النظرية كما يقولون .

اتجاهات الشباب العربي :

٢٩- في عام ١٩٥٣ تكونت في القاهرة " جماعة البحوث الحضارية المقارنة " بقصد القيام بدراسة مقارنة عن اتجاهات الشباب في كل من مصر ولبنان والعراق وسورية والاردن والولايات المتحدة الأمريكية . وكانت تضم مجموعة ممتازة من العلماء والخبراء والباحثين وأساتذة علم الاجتماع وعلم النفس المتخصصين ، من بينهم ١٣ من مصر ، و٩ من لبنان ، ٣ من العراق ، و٣ من سورية ، و١٤ من الولايات المتحدة الأمريكية . وضمت اليها من غير اعضائها هيئة استشارية من تسعة خبراء ، ثلاثة من مصر ، واثنين من لبنان ، وواحداً من العراق ، وثلاثة من الولايات المتحدة الأمريكية . ثم الحقت بها جماعة من المساعدين من كل دولة من الدول ميدان البحث .

بدأ جمع البيانات الرئيسية للبحث عام ١٩٥٥ بتسهيلات كريمة من الحكومات والجامعات ومعاهد التعليم والاخصائيين في تلك الدول . واستعملت في جمعها وتحليلها واستنباط النتائج منها أرقى مناهج البحث الميداني والتحليل العلمي . وبعد جهد متصل استمر نحو ست سنوات نشرت الدراسة ونتائجها في القاهرة عام ١٩٦٢ تحت اشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي عضو الجامعة واستاذ علم النفس في جامعة القاهرة حينئذ ، كما سلمت نسخة منه الى الفريق الأمريكي .

جاء في مقدمة الدراسة المنشورة عن منهجها الذي أسموه " المنهج الحضاري المقارن " : " ان مشكلة استقلال الحالات التي يتناولها البحث الحضاري المقارن من المشكلات الهامة التي يجب ان يحتاط لها في تصميم البحوث الحضارية المقارنة . وهناك رأيان متطرفان في هذا الصدد : رأي يذهب إلى أنه إذا كان هناك مجتمعان مستمدان من أصل واحد أو إذا أخذ أحدهما عن الآخر بكثرة فلا يجب اعتبارهما حالتين مختلفتين بل حالة واحدة . ورأي آخر يذهب إلى أنه مادام المجتمعان مستقلين سياسياً فإنهما يعتبران مستقلين كأي فردين في مجتمع واحد . إن هذه المشكلة كما يقول هوايتنج مشكلة معقدة ولم تحل بعد حلاً كاملاً . وفيما يتعلق بالبلاد العربية التي تناولها البحث الحالي فإن كل شخص وثيق الصلة بهذه البلاد لا بد أن يلاحظ أن الروابط

التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية بينها وثيقة جدا. ولكن بالرغم من هذه الروابط فإن هذه البلاد ليست متشابهة فى جميع ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفي المشكلات السيكولوجية والاجتماعية التى تصادف الشباب فى كل منها. فلا شك أن الاستقلال السياسي لهذه البلاد وتعرضها لبعض المؤثرات الداخلية والخارجية المختلفة قد أوجد فروقا في بعض المتغيرات التي يقوم البحث بدراستها. ومثل هذه الفروق توجد عادة بين أفراد المجتمع الواحد. ولذلك فإننا نميل في هذا البحث إلى اعتبار هذه البلاد العربية المختلفة سياسيا وحدات حضارية مستقلة يمكن أن تعقد المقارنة بينها. "

واضح من هذا التقديم أن " جماعة البحوث الحضارية المقارنة " في اتجاهات الشباب لم تقطع برأى فيما إذا كانت الدول العربية الخمس التي اختارتها تنتمي إلى أصل حضاري واحد بحكم ما هو ملحوظ من أن الروابط التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية بينها وثيقة جدا، أم أن كلاً منها يعتبر وحدة حضارية مستقلة عن الأخريات بحكم استقلالها السياسي وما ترتب عليه من فروق في الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي المشكلات، السيكولوجية والاجتماعية التي تصادف الشباب في كل منها.

لم تقطع برأي ولكنها "مالت " إلى اعتبار الدول العربية وحدات حضارية مستقلة.

على هذا الأساس "المائل " استمر جمع البيانات والبحث والدراسة والتحليل واستنباط النتائج الخاصة بكل دولة عربية على حدة بالاضافة الى الولايات المتحدة الأمريكية . وسجلت وثائق البحث في جداول كثيرة ومتنوعة أدق الفروق الفردية والتفصيلية بين اتجاهات الشباب من الذكور والنساء ، من المتعلمين والأميين ، من العاملين والعاطلين ، من سكان المدن وسكان الريف وسكان الصحارى ، من المسلمين والمسيحيين .. باختصار لم تترك وجهاً للمقارنة إلا درسته . وكان المفروض اتساقاً مع الاختبار الثابت في المقدمة ، أن تتم مقارنة النتائج بين اتجاهات الشباب في ست دول ، خمس عربيات وواحدة أمريكية . ولكن النتائج لم تقبل ميل الجماعة . النتائج الموضوعية لم تقبل الاختيار الذاتي . إذ انتهى البحث إلى أن يكون مقارنة ثنائية بين الخمس دول عربية من جانب والولايات المتحدة الأمريكية من جانب . وعللت الجماعة هذا في خاتمة بحثها تحت عنوان " استنتاجات عامة " بأن التشابه في اتجاهات الشباب في جميع الأسر العربية المسلمة والمسيحية في جميع البلاد العربية التي أجرى فيها البحث تشير الى التشابه الحضاري في جميع هذه المجتمعات بالرغم من اختلاف درجة التأثر بالمدنية الغربية .

أين المشكلة إذن ؟

(٥)

الشباب العربي و الانتماء

(الواقع)

مشكلة المشكلات :

٣٠- هذا شيخ تجاوز الستين يتحدث عن مشكلات الشباب العربى فكيف يعرف مشكلات الشباب ؟ يا للسخرية . أم أنه يسقط علينا نحن شباب اليوم مشكلات شبابه الذي ولّى ؟ ياللغرور . ثم إن هذا الشيخ يتحدث على هدى منهج في المعرفة يسميه " جدل الانسان " . ولسنا نعرف ، نحن الشباب العرب ، أحداً من جيله ذكر هذا المنهج في أي حديث منشور ، وإن كان من بينهم من ينشر احاديث تبدو كما لو كانت مصوغة على هديه . فإن ذكّرنا أحد بأننا ، في مطلع شبابنا ، قرأنا في مجلة " الفكر المعاصر : اكتوبر ١٩٦٥ " مقالاً لاستاذنا الفيلسوف العربي ، شيخ الفلاسفة ، الدكتور زكي نجيب محمود يعرض فيه هذا المنهج ويشيد به ويقول إنه " خاصة مميزة يرجح لها أن تكون من أهم العناصر التي منها ستتكون آخر الأمر ما سوف نسميه – بعد استكمال مقوماته – فلسفة عربية معاصرة " فإنا نذكر ولا ننسى ما قال استاذنا . بل نذكر أنه قد بشرنا بهذا المنهج مصدراً للطمأنينة حين قال وهو يقدمه :

" ان التحليل الفلسفي الصرف قد ينتهي بالباحث أحياناً إلى القول بألا فرق من حيث البحث العلمي بين ظاهرة الانسان وأي ظاهرة أخرى من ظواهر الوجود ، لكنني – هكذا قال استاذنا – على يقين من أن الباحث منا حين ينتهي في بحثه إلى نتيجة كهذه يحس قلقاً بين قلبه وعقله ، وإنني لأشهد الله أني عانيت في حياتي الفكرية مثل هذا القلق على نحو طالما اشتد بي حتى اضطربت نفسي ، فكم ذا يتحقق لنا من طمأنينة النفس إذا جاءنا باحث يقيم على منطق العقل – لا على نزوات الهوى – ما نتمنى أن يقام " .

إن ذكرّنا أحد بهذا الذي قرأنا في مطلع شبابنا فليتذكر معنا أن مصدر " المشكلة " طبقاً " لجدل الانسان " هو التناقض بين الماضي والمستقبل في الانسان نفسه . وهو ما يعني – ان صدق المنهج – أنه محال على غير الشباب أنفسهم أن يعرفوا مشكلات الشباب العربي على هدى منهجه ؟ .. يا للتناقض .

٣١ – صدق الشباب أن قالوا ما نقول . وإن كان هذا ليحرمهم من أغلب ما قيل وكتب ونشر من فوق المنابر العربية عن الشباب العربي ومشكلاته ، إذ هي مواعظ آسفة أو عاطفة ينثرها ، أو ينشرها كهول وشيوخ عزاء لأنفسهم عن شبابهم المفقود . لا . لن نتحدث عن الشباب تفويضاً ولن نتحدث إلى الشباب تعويضاً ، وإنما سنحاول أن نعرف معرفة علمية ما إذا كان في الواقع العربي ما يمكن أن يكون مصدر مشكلات للشباب العربي كما ميّزناه سوياً .

٣٢- والواقع ان مشكلة المشكلات في دراسة أية ظاهرة هي كيف نعرف انها موجودة موضوعياً بالنسبة إلى الباحث أو المتحدث بمعنى أنه لم يتدخل في انشائها أو اختلافها ولم

يخطيء في معرفتها عامداً أو غير عامد . وأغلب الدراسات الجيدة التي كتبت عن الشباب العربي تنتهج الى هذه المعرفة منهجاً سائداً في البحوث الاجتماعية والنفسية . أنه المنهج الاحصائي . أوفى ما نشر من هذه الدراسات كتاب " الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها " الذي أنشأه عالم الاجتماع العربي ، الدكتور عزت حجازي (عالم المعرفة ، العدد السادس : ١٩٧٨) . لقد انطوى على جل ما قيل انه من مشكلات الشباب العربي ، وأثبت مراجعه ، بالاضافة إلى ابداع مؤلفه وهو نفسه مرجع في مادة تخصصه .

إننا نذكره لنوصي الشباب بقراءته . غير ان هذا لا يحول دون أن نضع تحت نظر الشباب ملحوظاتنا على المنهج الاحصائي في اكتشاف مشكلات الشباب العربي . يقوم هذا المنهج على اختيار عينة من الشباب ودراستها عن طريق الملاحظة أو المقابلة أو الاستبيان أو بها معاً . وفيما عدا الملاحظة فإن كلا من المقابلة والاستبيان حوار . الأولى حوار مباشر بين الباحث والشباب. والثاني حوار مكتوب في شكل أسئلة وأجوبة. ثم يجمع الباحث كل حصيلة هذا ويبدأ التصنيف والتحليل والاستنباط لينتهي إلى ما يرى أن أولئك الشباب "العينة " يعانونه من مشكلات. قد تكون العينة مائة أو ألفا أو عشرة آلاف لا يهم ، إنما المهم هو أن النتائج التي يصل إليها الباحث تعمم على الشباب العربي كافة وتنشر على أنها ما اسفرت عنه الدراسة العلمية لمشكلات الشباب العربى . وقد رأينا من قبل كيف أن " جماعة البحوث الحضارية المقارنة " قد أحتاطت ضد هذا التعميم احتياطا مبالغا في الحذر " مالت " به إلى عقد المقارنة بين خمس دول عربية بالرغم من معرفتها بما بين الناس فى تلك الدول من روابط حضارية . صحيح أن النتائج فرضت الحقيقة ولكن هذه الحقيقة لم تكن مستهدفة من البحث أصلا بل جاءت مناقضة لما أستهدفه أي جاءت كاشفة خطأ المنهج ذاته.

٣٣- ونستطيع أن نقول مطمئنين أن هذا المنهج السائد في الدراسات الاجتماعية والنفسية في الوطن العربي مسؤول عن بقاء مشكلات الشباب العربي مجهولة إلى حد كبير، كما هو مسؤول إلى حد كبير عن خلق مشكلات للشباب العربي لم تكن موجودة.

٣٤- اما أنه مسؤول عن بقاء مشكلات الشباب العربي مجهولة الى حد كبير فيمكن ادراكه من تتبع خطوات هذا المنهج التي تبدأ بالباحث والعينة ، ثم بطرق البحث ، ثم باستنباط النتائج .

إن الباحث قد وصل- على الأقل- إلى درجة من العلم تؤهله للبحث. إنه إما في درجة أستاذ جامعى ، أو هو أستاذ جامعي ، أو هو طالب في مرحلة الدراسات العليا ويعد ما يؤهله للاستاذية بحثاً تحت اشراف استاذ جامعي . إنه في هذه الدرجة يكون قد تملك، أو المفروض أن يكون قد تملك وجهة نظر، وليس بالضرورة نظرية، في من هم الشباب، ومتى يكون الشباب سويا، ومتى يكون غير سوي فتكون له مشكلة، إن وجهة نظر الباحث الأستاذ هذه ستوجهه- حتى دون أن يتعمد- وهو يختار العينة، وهو يلاحظها، وهو يقابلها، وهو يختار الأسئلة التى يوجهها، وأخيرا فإنها ستتحكم فى تحليله المقدمات وتركيبه النتائج . وقلما تأتي النتائج مناقضة لما يكون الأستاذ قد نشره من آراء نظرية أو القاه على الطلبة فى أحد المعاهد العلمية.

ثم نأتى إلى العينة المختارة للدراسة . إنها في الاغلب من الحالات ، أو في الأغلب من الأعداد ، منتقاة من المحيط الاجتماعي أو العلمي للباحث . اما من طلاب الجامعات ومعاهد التعليم العليا أو الثانوية وإما من سكان المدن . وغالبا ما تكون العينة مختارة من طلاب ومقيمين في المدن

معاً . وقد احسن صنعاً الدكتور عزت حجازي حينما نبّه في كتابه القيم إلى أن مابه من دراسة مقصورة على طلاب الجامعات . ولولا هذا التنبيه لما كان مقبولا أن يحمل الكتاب القيم عنواناً أوسع في مادته . يضاف هذا الى ما قلناه من خطأ تعميم ما تسفر عنه دراسة عينة محددة العدد يكون حكماً على أكثر من أربعين مليوناً من الشباب العربي ومشكلاتهم ، ان كانت لهم مشكلات.

ثم تاتي طرق البحث . الملاحظة رؤية من الخارج تتوقف صحة مايدرك من خلالها على وحدة معيار السلوك السوي لدى الباحث والعينة . فقد يبدو ما يلاحظه الباحث غير سوي قياساً على معايير مجردة بيولوجية أو عصبية أو نفسية في حين يكون ما لاحظه سوياً حتى طبقا لهذه المعايير إذا أضيفت اليها الظروف الاجتماعية المتغيرة في الزمان والمكان . أما المقابلة فأستاذ يستنطق شاباً ليدرسه . وقد يستنتج من حديثه القلق أنه يعاني في حياته مشكلة ، في حين ان كل انسان سوي يعاني من الحصر العصابي (القلق النفسي) حين يجد نفسه " شيئاً " يدرس . هذا بالاضافة إلى أن مجرد وعي فارق السن والعلم والمركز الاجتماعي بين الباحث والشاب ، واختلاف دور كل منهما في الحياة ستؤدي – لا شعورياً في كثير من الحالات – إلى اضافات تعويضية تنتقص من الثقة العلمية في صدق ما يقوله الشاب العينة .

ثم يأتي الاستبيان . وفيه يختلي الشاب بالاسئلة . ولكنها لن تكون خلوة كاملة . ذلك لأن مجتمعه كله بعناصره الحضارية كلها من معتقدات وتقاليد وعادات وآداب وقيم سيكون حاضرا معه فيه . وهو أمر لا حيلة للشاب فيه . سيجيب الشاب العينة . ولكن صحة الإجابة تبقى متوقفة على الجواب على سؤال سابق : هل كان يستطيع أن يجيب على وجه آخر صادقا ام لا ؟ إن الشاب العربي السوي لا يستطيع ان يجيب صادقاً على اسئلة كثيرة تنتهك حرمات الأسر ، وصون الحرمات قيمة حضارية عربية . وبالتالي فإنه لا يجيب إجابات صادقة أو كاملة الصدق عن اسئلة كثيرة تتعلق بوالده ووالدته وأسرار العلاقة بينهما التي لا تسمح العادات العربية بان يعرفها معرفة كاملة ، كما لن يجيب اجابة كاملة الصدق عن أقربائه وقريباته وعن طفولتهم وطفولته لأن قيماً عربية كثيرة ترده عنها من داخله فيرتد . فإن أجاب صادقاً فإنه يعاني فعلا مشكلة يسمونها مشكلة " الاغتراب " والمغترب – كما سنعرفه فيما بعد – انسان غير سوي فسلوكه صادق الدلالة على حالته المرضية وليس صادق الدلالة على حالة غيره ممن يتحدث عنهم ولا على الأسباب الموضوعية التي ادت إلى اغترابه . وحتى الشباب السوي تختلف اجاباته وهو في حالة اشباع بيولوجي ونشاط فسيولوجي وانتباه عقلي وراحة نفسية عن إجاباته حين يكون مفتقداً حالة أو أكثر من هذه الحالات أو كلها معاً ، على الأسئلة ذاتها . وهي تفتقد وقد تعود على مدى ساعات النهار ولا نقول على مدى توالي الأيام .

كل هذه الملاحظات لا تعني أن هذا المنهج في البحث عقيم، فالواقع أنه كثيراً ما يؤدي إلى نتائج يمكن الاعتماد على صحتها كمؤشرات ، خاصة حين تصدق التعميمات المستنبطة على محك الممارسة التطبيقية . كل ما في الأمر أنه يجب ان تؤخذ تعميماته بحذر شديد ، ذلك لأن حظها من الصدق متوقف على حظ الباحث من العلم والكفاءة والأمانة ، وحظ العينة من قابليتها للدراسة وتعاونها ، وحظ البحث ذاته في اختبار المجتمع الذي يستجيب لهذا النوع من البحث زماناً ومكاناً . ونعتقد ان توفر كل هذا معاً لبحث في مشكلات الشباب العربي ما يزال نادراً . لهذا قلنا أن منهج هذا البحث بالرغم من انه سائد في الدراسات الاجتماعية والنفسية في الوطن

العربي ، وربما لأنه هو السائد ، مسؤول عن بقاء مشكلات الشباب العربي مجهولة إلى حد كبير .

٣٥- اما أنه مسؤول إلى حد كبير عن خلق مشكلات للشباب العربي لم تكن موجودة فذلك لما يكاد يكون محل اجماع من شدة قابلية الشباب للايحاء. يقول وليم مكدوجال في كتابه "علم النفس- دراسة في السلوك : ١٩٤٧ " تحت عنوان " علم النفس الاجتماعي " : " يجب أن نعرف أن التفسير المنطقي لا يؤثر في نمو وجهى العقل الادراكي والنزوعي كليهما إلا تأثيرا ثانويا وعرضيا، وأن الأسلوب الذى يؤثر به المجتمع في العقل إبان نموه، في كل لحظة من لحظات هذا النمو، أسلوب ذو طبيعة مختلفة . ويمكن تصنيف هذا الأسلوب إلى ثلاثة أنواع واسعة : الايحاء والتعاطف والمحاكاة ونقصد بالايحاء الطريقة التي تدس بها المعتقدات أو تصل إلى شخص مستقلة عن أي تبرير منطقي يربط بينها وبين نتيجة ما... الخ . "

فإذا تصورنا المنهج الاحصائي ، أو الكشفي كما يسمونه في بعض الدراسات ، نجد انه كلما بدا الباحث في نظر الشاب بالغ العلم والكفاءة والأمانة كلما كان نزوع الشاب الى محاكاته قوياً . وكلما حاول هذا الباحث العالم الكفء كسب ثقة وتعاون الشاب موضوع الدراسة كان هذا التعاطف أداة تأثير قوي في قابلية الشاب للايحاء . فحين يدرك الشاب أن موضوع الدراسة مشكلة متعلقة بالشباب لا يستطيع مقاومة الايحاء بان هذه المشكلة " موجودة " .. سيؤثر هذا في إجاباته التي ستبدأ ، لا من افتراض أنها قد لا تكون موجودة ، بل من انها موجودة فهي تحتاج الى تفسير أو تبرير أو حل .. المهم ان هذا الشاب الذي لم يكن من قبل أن يصادف الباحث العالم الكفء الأمين المتعاطف يدرك من واقع ذاته أن ثمة مشكلة ، تقتحم المشكلة ذاته عن طريق البحث ... يخلقها البحث خلقاً . ما الذي يثيره سؤال إلى شابة عربية ريفية أو بدوية حين تسأل : ما رأيك في تدخل والديك في شؤونك الخاصة ؟ وهو سؤال بسيط . أغلب الظن أن السؤال سيصدمها (يسمونها صدمة حضارية) وتتردد لحظات مضطربة ، ثم تقول على سجيتها " وماله " . تعني أنها ترى هذا طبيعياً ثم تنصرف . ولكن آثار هذا السؤال لن تفارقها . فقد اوحي إليها بان لها شؤوناً خاصة لا ينبغي لوالديها أن يتدخلا فيها فتظن لأول مرة أن ما يسميه الوالدان رعاية أو حماية هو تدخل في شؤونها الخاصة ، فتوهم أن ثمة تناقضاً بين استقلالها بشؤونها الخاصة وبين علاقتها بوالديها ... فتصبح لديها مشكلة لم تشعر بها من قبل .

وهكذا ترى المأزق الذي يجرنا إليه المنهج الاحصائي في محاولة اكتشاف مشكلات الشباب . كلما ارتفعت كفاءة الباحث كلما زادت مقدرته على الايحاء إلى الشباب بوجود المشكلات التي يبحث عنها . وهو مأزق خطر اجتماعياً .

ولنعترف أن علماء هذا المنهج لم يتركوا وسيلة فنية إلا وأضافوها إليه لتكون نتائجه أكثر ما تكون خطراً . وهي وسائل فنية بالغة التنوع والتعقيد لا محل لها في هذا الحديث ، ذلك لأن أحداً من أولئك العلماء لم يقل أنه المنهج الأمثل في اكتشاف الحقائق . ولسنا نقول عنه ما نقله الدكتور عبد العظيم انيس عن رجل الدولة البريطاني جلادستون من أن : " هناك ثلاث درجات من الأكاذيب ، فهناك الأكاذيب ، ثم هناك الأكاذيب الملعونة ، ثم هناك الإحصاء " الاهرام الاقتصادي عدد ٧٣٧) لأننا نعرف من تاريخنا أن جلادستون هذا كان رئيس الوزارة البريطانية صاحب قرار احتلال مصر يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ وانه قال في مجلس العموم

البريطاني يوم ٢٤ يوليو ١٨٨٢ : " ليس لبريطانيا العظمى مطامع في مصر وهي لم ترسل الجنود اليها إلا لإعادة الأمن فيها " فكانت كذبة ملعونة دامت لعنتها ٧٥ عاماً . والكذاب لا يقول إلا كذباً حتى عن انواع الكذب .

٣٦- لولا أن الحديث ينبىء بأنه قد يطول أكثر مما ينبغي لكان ينبغي أن نتحدث حديثا وافيا عن المنهج المادي الجدلي (الماركسي) في اكتشاف مشكلات الشباب حتى نرد مقدماً على ما قد يثيره بعض الشباب الماركسي من اعتراضات على أساس أن انتماء الشباب إلى طبقته بحكم ان اسلوب انتاج الحياة المادية هو الذي يحدد الانتماءات الاجتماعية " حتماً " ، وبالتالي أن مشكلات الشباب العربي ليست متجانسة إنما يعاني كل شاب مشكلات الطبقة التي ينتمي إليها ، إن هذا يمكن أن يكون محلاً لحوار يدور حول مشكلات شباب الطبقة العاملة أو الطبقة البرجوازية . فمن الممكن الاستغناء عنه في حديث عن مشكلات الشباب العربي كافة ، أي عن المشكلات المشتركة بين الشباب العربي كافة . ولا ينكر الماركسيون أن ثمة مشكلات مشتركة بين الشباب كل ما في الأمر أنهم ، طبقا للمنهج المادي الجدلي ، يتناولونها على مستوى " أممي " لا يعتد كثيراً بالمميزات القومية ، وقد ينكرها ، أما نحن فنتناولها على مستوى عربي قومي لسنا على استعداد للحوار حوله الآن .

ثم أن الدكتور مراد وهبة وقد حمل إلينا على صفحات كتابه " محاورات فلسفية في موسكو " خلاصة ما " أكتشفه " على مدى عام قضاه زائراً الاتحاد السوفييتي (اكتوبر ١٩٦٨ حتى اكتوبر ١٩٦٩) . وهي خلاصة بالغة الثراء نقلها ماركسي عربي بالغ الأمانة . خلاصة الخلاصة أن فلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس في الاتحاد السوفييتي يراجعون " المادية الجدلية " وان هناك اتجاهاً يمثله ألينكف رئيس قسم المنطق في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم في موسكو عرضه في كتاب صدر عام ١٩٦٨ بعنوان " عن الاصنام والمثل " يقصر الجدل على الانسان دون المادة ودون الفكر ، وإن ثمة عالماً من اتباع مدرسته أنشأ كتاباً في هذا بعنوان " ماهية الانسان الفاعلة كمبدأ فلسفي : ١٩٦٨ " .

وقد ظهر أثر هذا الاتجاه فيما كتبه بعض علماء النفس في الاتحاد السوفييتي في السنين الأخيرة . في كتاب يحمل عنوان " مشكلات النمو العقلي : ١٩٨١ " يبدأه مؤلفه أ . ن . ليونيف بقوله : " حين يتأثر الكائن الحي على وجه أو على آخر بمؤثر خارجي فإنه يهضمه ويتمثله . ولا يكفي من اجل هذا أن يبقى سلبياً متأثراً ، بل لا بد له هو ان يفعل شيئاً في الوقت ذاته . هذا الفعل قد يأخذ شكل عملية داخلية أو حركة خارجية ولكن لا بد من أن يحدث " ... ثم يأخذ هذه القاعدة مطبقاً إياها باستفاضة مصحوبة بخلاصات التجارب وجداولها إلى ان يصل إلى آخر الكتاب لينفي صحة " وجهتي نظر " في كيفية عمل الانسان المؤثر المتأثر بما هو خارجه . أولاهما ترى أن في الانسان وظائف عقلية ونشاطاً معرفياً يعمل ذاتياً بمجرد التأثر بظاهرة خارجية (وجهة نظر مثالية) ، وترى الثانية أن الانسان لا يفعل حين يتأثر إلا ان يعيد ما اكتسبه بالمران والتكرار من خبراته السابقة (وجهة نظر مادية) لينتهي إلى أن الانسان يعي تجاربه وما يصل إليه من تجارب تاريخية ، ويهضمها ويتمثلها لا ليكررها ولكن ليستخدمها في تغيير ظروفه .

مثل هذا الاتجاه واضح الظهور أيضاً في كتاب ف . ت . ميخائيلوف " لغز النفس : ١٩٦٧ " فبعد عرض مطول لما قاله هيجل وما قاله رسل يتبنى تعريفاً طريفاً للانسان ، ينقله عن عالم

سوفييتي آخر اسمه أموسرف " تشكيل الفكر والعقل : ١٩٦٥ " فيقول ان الانسان " كائن منظم قادر على إدراك المؤثرات الخارجية ، واستخراج معلومات منها ، وإدخال المعلومات في قوالب ذات مستويات مختلفة ، والتأثير في محيطه الخارجي طبقاً لخططه ذاته على مستويات متعددة . فالانسان في النهاية هو ضابط ذاتي لخططه " . ويضيف ميخائيليوف من عنده : " حتى نستبعد أي إمكان لسوء الفهم نقول إن الانسان ضابط ذاتي طالما أن نشاطه مؤسس على خطة قائمة في داخل ذاته وليس خارجه على أي وجه ... الخ ... وبعد ؟

مشكلات الحياة :

٣٧- وبعد..، فلنتحدث عن مشكلات انتماء الشباب العربي إلى الواقع كما نعرفه بمنهجنا وقد عرضنا في الجزء الأول من الحديث الشخصية السوية للشباب العربي حيث يكون في مطلع شبابه قد تشكلت شخصيته على أسس من حضارة أمته رويدا رويدا منذ ولادته بدون وعي منه . إنه الآن سوي لأنه إذ يختار دورا أو يلعبه ، وإذ يتفاعل خلال ذلك مع كل ما ومن هو خارجه سيكون مستجيبا تلقائيا وبدون جهد ، أو اضطراب، إلى المعايير الحضارية الكامنة في ذاته. ستصادفه كل يوم، كل ساعة، كل لحظة مشكلات ولكنها مشكلات الحياة السوية : العمل على إشباع حاجاته المادية والفكرية والروحية المتجددة أبدا بما هو ممكن في ظروف الزمان والمكان الذي يعيش فيهما.

لن يدهشه أن يدرك أن أمته العربية، مجتمعه، أمة نامية ولكنها متخلفة. أن النمو هو النقيض الواقعي، حصيلة الماضي، أما التخلف النقيض المتصور من خلال مقارنة مستقبل أمته بما حققته بعض المجتمعات المعاصرة . فلن يلبث - مادام سويا- أن يدرك الحل الصحيح لهذه المشكلة. هي مضاعفة ما هو ممكن، وليس القفز من فوق القرون اختزالا غير واقعي للفرق بيت ما هو واقع وما هو متصور . حينئذ يتعلم الشباب العربي من تلك المجتمعات أساليب مضاعفة عائد الواقع المادي والبشري والفكري والروحي ويقتنى أدوات هذه الأساليب ابداعا أو صنعا أو شراء، ويتدرب على إتقان استعمالها ويستخدمها فى مضاعفة عائد ما هو متاح له فى مجتمعه من أسباب التنمية فيتضاعف ما هو ممكن وتزداد سرعة نمو أمته..

قد تصاحب عملية التنمية هذه إضافات من النظم أو العادات أو الآداب أو القيم مثل إعادة تقسيم العمل الاجتماعي ، أو الهجرة من الريف إلى المدن، أو ازدحام المدن بالشباب الوافدين إليها بحثا عن فرص عمل أفضل، أو استبدال الأسرة الممتدة بأسرة صغيرة ، أو ارتفاع القيمة الاجتماعية للعمل على حساب قيمة الاستغناء عنه بالثروة ، أو استقلال الشباب مبكرا عن أسرهم.. الخ.. وقد يتعب أو يفشل أو يضيق بعض الشباب بهذه المستحدثات على حياته، ولكنهم على مدى حياتهم وقبل أن تنقضى مرحلة شبابهم ، سيكتسبون تلك الخبرة بالحياة التى سبقهم إليها من كانوا من قبل شبابا صادفوا التعب والفشل والضيق ثم تجاوزوها أكثر نموا ونضجا. إن كل هذه، كلها، لا تعتبر مشكلات إلا حين تنسب إلى جدل الحياة إلى التفاعل المحتوم بين الشباب ومجتمعه، إلى قانون التطور، حيث لا يتم التطور إلا من خلال حل تلك المشكلات... أعني أن الشباب ينمو ويتطور صحيا من خلال مواجهته تلك المشكلات وحلها، وليس من خلال أي شيء آخر.

بشرط أن يكون قد واجهها وحلها كما هو مكتمل الشخصية في بدء شبابه. أي فى حدود المعايير التى اكتسبها من حضارته. ولن تلبث حضارته إلا أجيالا حتى تهضم وتتمثل ما يتفق مع بنيتها من تلك المستحدثات من أساليب النمو وأدواتها وما يكوّن صاحبها من نظم وعادات وآداب وقيم ، وهكذا نمت وتطورت الحضارة ، وهكذا يؤدي الشباب دوره في نمو وتطور حضارته القومية ، وهكذا تنو وتتطور شخصيته العربية ، وهكذا يكون كل جيل من الشباب العربي أكثر نمواً وتطوراً من أجيال الشباب التي سبقته . وهي حقيقة لا يريد ان يعترف بها الكبار لا أدري لماذا . مع ان من المسلمات ذات الأصل الحضاري في امتنا العربية أن يقال أن الرجل لا يحب أن يفضله أحد إلا ولده . ألم نلقنهم حضارتنا وهم بعد غير واعين فشكلنا هياكل شخصياتهم وهم لا يدرون ، فأسهمنا في إنشائهم كما هم شباباً عربياً ، فأية إدانة لنا أقسى من أن نزعم أننا كنا افضل منهم شباباً . إن كان هذا تعبيراً عن واقع يلمسه بعضنا فقد يرجع إلى أسباب سنعرفها بعد قليل ، الشباب العربي بريء من مسؤوليتها وقد نكون نحن المسؤولين . فصبراً .

ومنها ما لا نطيق عليه صبرا. إن كثيراً من الشباب العربي يدخل الى مرحلة شبابه حاملاً مشكلات الحياة التي عجز جيل قبله عن حلها فتضاف إلى أحماله المقبلة . إنه أمي ، إنه فقير ، إنه مشرد ، إنه مريض ، إنه قد تربى على غير مرب ، إنه تلقى مبادىء الشرود والضياع من أسرة شاردة ضائعة ، إنه سوي ولكن مغبون في نظام ولد فيه لا يعترف بالمساواة ... الخ والشباب الذي كان طفلاً بدون إرادته ، ولد في مكان لم يختره ، ينتمي إلى أسرة لم يأخذ أحد رأيه في انتمائه إليها ، يعيش في مجتمع هو قدره ، في ظل نظم سياسية واقتصادية واجتماعية اصطنعها أجيال قبله .. ويكون عليه أن يبدأ رحلة شبابه من كل هذا ، فتضاف إلى مشكلات حياته السوية مشكلة استواء نظم الحياة المختلفة . فمن ذا الذي يجرؤ على إدانة الشباب العربي وقد حملناه أوزارنا في حين ان حضارتنا قد علمتنا المشاركة في الحقوق والتفرد في المسؤولية حين لقنتنا إنا أمة من ناحية وألا تزر وازرة وزر اخرى من ناحية ثانية .

و مع ذلك فكل مشكلات نمو وتطور وحياة وإن كانت عبئا مرهقا للشباب العربى . إنها متاعب حياة سوية نامية . ولكن الأمور لا تجري على هذا الاستواء فى الوطن العربي . لا أحد يريد للشباب العربي أن يحيا حياته بمشكلاتها كما هي ، وان يترك له وحده أن يحاول حلها و أن ينضج خلال حلها . إن ثمة قوى منظمة هائلة مسلطة على الشباب العربي خاصة لا لتعوق حل مشكلات حياته، ولكن لتفكيك هيكل شخصيته ، وتحاول أن تستبدل به هيكلا حضاريا غربياً .

وهذه هى المشكلة الأساسية التي يعاني منها الشباب العربي . مشكلة الانتماء. فهل ثمة في الواقع العربي أسباب موضوعية لمثل هذه المشكلات؟

الامبريالية الحضارية :

٣٨-- ليس العنوان من عندنا بل هو من وضع عالم الاجتماع الأمريكي فيكتور بالدريدج الأستاذ فى جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية، استعمله في كتابه الذي أشرنا إليه من قبل. يذهب هذا العالم الأمريكى إلى أن كل حضارة لها قيمها الخاصة وهي تساند هذه القيم حين تهاجم قيم المجتمعات الأخرى . إن هذا الهجوم قد يصل إلى أقصى مداه فيتحول إلى " امبريالية حضارية " أي محاولة من مجتمع ما لفرض قيمه على مجتمع آخر كما فرض كل من الأغريق والرومان حضارتهم بقوة السلاح على البلاد الشاسعة التى غزوها ففرضوا عليها حكامهم

وديانــاتهم ونظمهـم الاقتصــادية ، وكمـا فعلـت أوروبـا ابتـداء مـن القـرن الخـامس عشـر فـي المستعمرات فحاولت أن تفرض عليها الحضارة الأوروبية ولكنها لم تفعل بتلك المحاولة شيئاً أكثر من إشاعة الاضطراب في حضارات تلك المستعمرات . ويقول : إن غزو الامبراطوريات الأوروبية للهند وأفريقيا وجنوب شرق آسيا قد كان مستتراً بستر شفافة من البواعث المعقولة ، ولكنه في حقيقته لم يكن إلا اغتصاباً اقتصاديا وقحا واسع النطاق . إن كثيرا ممن ينتقدون حرب فيتنام، مثلا، لم يثقوا قط فيما كانت تعلنه فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية من أن غايتهما إنقاذ الفيتناميين من الخطر الشيوعي . بالعكس . إن كثيرا من الناس يعتقدون أن تلك الغاية كانت إنقاذهم من أجل استغلالهم بمعرفة رجال الأعمال . من هذه الزاوية فإن إقحام الديموقراطية الأمريكية والقيم الاقتصادية الأمريكية لم يكن إلا حالة تقليدية من الامبريالية الحضارية. ان تلك الأمة الخاضعة وأهلها من المدنيين الذين لا حول لهم ولا قوة قد فرضت عليهم قيم حضارية من قبل قوى دولية لهما مصالح تقتضى حمايتها هذا التغيير .

فهل تتعرض أمتنا العربية لغزو امبريالي حضاري؟

جيوش الغزو الحضاري :

٣٩- يقول فرانسيس بال عميد المعهد الفرنسي للصحافة والأستاذ في جامعة باريس، فى دراسة كتبها للجمعية الفرنسية للقانون الدولي نشرت عام ١٩٧٨ أنه منذ زمن طويل ودول العالم الثالث تشعر بالخطر المسلط على شعوبها من خلال وسائل الدعاية والاعلام التي تملكها وتوجهها القوى الاستعمارية بقصد الحفاظ على الهيمنة الامبريالية. وكان على رأس قائمة المخاطر تشويه حقيقة مجتمعات العالم الثالث وتفكيك مكوناتها الحضارية التاريخية وإعادة بناء ثقافتها وأفكارها وتقاليدها وقيمها لتكون على ما يتفق مع مصالح دول الغرب، مستغلة عدم التكافؤ بين مقدرتها الاقتصادية والتكنولوجية على غزو عقول شعوب العالم الثالث وبين التخلف الاقتصادي والتكنولوجى الذي يحول بين دول تلك الشعوب وبين الدفاع الدعائى لتحصين عقول الشعوب أو لتحريرها.

والواقع أن فزع العالم الثالث من هذا الخطر الحديث قد عم فأصبح إدراكه جماعيا. ولقد كان الوطن العربى مركز أول حشد لمقاومة هذا الخطر. ففى الجزائر انعقد المؤتمر الرابع لدول عدم الانحياز في سبتمبر ١٩٧٣ . وكان خطر الغزو الغربي لعقول الشعوب أحد الموضوعات الأساسية التي ناقشها المؤتمر وأوصى في اعلانه الختامي بتعاون الدول غير المنحازة في ميدان النشاط الاعلامي " لوضع حد لمحاولة اهدار خصائصهم الحضارية والثقافية " وفي تونس انعقد عام ١٩٧٦ مؤتمر من خبراء الاعلام العرب والأفارقة استجابة لدعوة مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز الذي انعقد عام ١٩٧٥ . وقد جاء في قرارات المؤتمر أن دول عدم الانحياز تعاني من هيمنة الدول المتقدمة على وسائل الاتصال بالجماهير بحكم احتكارها لأغلب وسائل الاتصال في العالم واستغلالها هذه الهيمنة للتدخل في شؤون الدول الأخرى الداخلية بقصد تحقيق أهداف النزوع الامبريالي والاستعماري الجديد . وفي يوليو ١٩٧٦ انعقد في نيودلهي بالهند مؤتمر وزراء الاعلام في الدول غير المنحازة وفيه عبرت السيدة انديرا غاندي رئيسة وزراء الهند حينئذ عما تقوم به الدول الاحتكارية من تزييف حقيقة العالم الثالث عن طريق

الدعاية والاعلام بالكلام والاقلام والأفلام ثم قالت بمرارة : " إننا نريد أن نستمع إلى ما يقوله الافريقيون عن الأحداث في افريقيا وإن نقدم التفسير الهندي لما يحدث في الهند " .

وفي نوفمبر ١٩٧٦ انعقد المؤتمر العام لمنظمة (يونسكو) في نيروبي وفيه عبر ممثلو دول العالم الثالث عن إدانتهم لهيمنة الدول المتقدمة على مقدرات الدول النامية وضمائر شعوبها عن طريق الاعلام بقصد احلال الحضارة الغربية محل الحضارة الوطنية. ويشهد فرانسيس بال في كتابه " الاعلام والمجتمع " أن قد تألق في حلبة الدفاع عن عقول الجماهير في الدول النامية، خلال هذا المؤتمر الوزير العربى مصطفى المصمودي الذي كان يمثل تونس العربية.

بل أن الفزع قد ارتد إلى مصدريه. فنرى رئيس جمهورية فرنسا، يصدر فى ٤ نوفمبر ١٩٧٤ قراراً جمهوريا بتكليف وزير الداخلية بأن : " يقترح على الحكومة فى خلال مدة لا تزيد عن ستة أشهر التدابير الكفيلة بضمان ألا يؤدي تقدم وسائل الاعلام في القطاع العام والمشترك والخاص إلى ما يمس حرمة الحياة الخاصة ، والحريات الفردية والحريات العامة " . وقد شكل وزير الداخلية لجنة برئاسة نائب رئيس مجلس الدولة تتبعها مجموعات عمل متخصصة وقدمت تقريرها في ٢٧ يونيو ١٩٧٥ . خلاصة التقرير – فيما يعنينا – ان خطر اغتصاب عقول الجماهير الفرنسية وحقوقهم لم يقع بعد ولكن مقدماته تنبىء بأنه وشيك الوقوع مما يقتضي أن تتخذ الدولة إجراءات وقائية تحول دون وقوعه . واقترحت اللجنة ما شاءت من إجراءات ملأت كتاباً نشر مستقلاً عام ١٩٧٦ .

إنه غزو شامل تقوم به الامبريالية العالمية . فلم يكن غريبا أن تنتهز المؤتمرات الدولية التي انعقدت في العالم الثالث فرصة التحضير للعام الدولي للشباب وتركز على ما يعانيه الشباب فيها من عوارض الاغتراب عن التقاليد والقيم التي جعلته عاجزاً عن التكيف في المجرى الوطني العام للنمو والانصراف الى تقليد الأجانب اجتماعيا وثقافيا ودينياً .

الشخصية العربية :

٤٠- لن نستطيع أن ندرك مخاطر هذا الغزو الحضاري الذي يهدد الشباب العربي إلا إذا عرفنا وجه التناقض بين الهيكل الاساسي للحضارة العربية والهيكل الاساسي للحضارة الغازية . تماماً كما ان ادراك جريمة القتل لا يتم إلا بمعرفة أن ثمة قاتلاً وثمة مقتولاً . ولن نتعرض هنا للفروق الحضارية التي لا يمكن حصرها ، يكفي ان نعرف الفروق الأساسية التي تنبني عليها وتتفرع منها تلك الفروق .

أولاً ، وقبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، إن هيكل الحضارة العربية قائم على قاعدة قومية . وهذا يعني تماماً أنها حضارة نشأت ونمت واكتملت خصائصها العربية خلال نشأة ونمو واكتمال تكوين الأمة العربية . ومن هنا فهي تفترق أساساً وهيكلاً عن الحضارات العشائرية والقبلية والشعوبية التي كانت قائمة في المرحلة التاريخية السابقة على تكوين الأمة العربية ...

هذا مبدأ منهجي للحديث عن الحضارة العربية ، بحيث أن انكاره يعني ألا جدوى في الاستمرار والاستماع اليه أو قراءته .

الان نسأل ماهو الهيكل الاساسي الذي قامت عليه الحضارة العربية ؟

٤١- ننقل الجواب عما كتبنا ونشرنا في عام ١٩٦٥ وما يزال في نظرنا صحيحاً وهو متاح الآن في طبعات جديدة " الجزء الثاني من نظرية الثورة العربية : ١٩٧٩ ص ٦٦ – ٧١ " . وقد كنا نتحدث في ذلك الوقت عن تكوين الأمة العربية :

" نحن أمة وحد الزمان ظروفها ، فلها وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة التاريخ ، الذين لا يدركون هذا عن طريق معرفة التاريخ يدركون حصيلته فيهم شعوراً بالانتماء القومي . وعلى الذين لا يشعرون به أن يكتشفوا انفسهم من غربتهم في الأمم الأخرى ، فهم ثمة متميزون بعروبتهم عن الأمم لا تقبلهم لأنهم لا ينتمون إليها . فغن كان كل هذا لا يكفي فليدلنا المنكرون إلى امة ينتمون ، فليس ثمة انسان مبتور الجذور . وإلى ان يعثر كل منهم على جذوره . يهمنا – نحن العرب – أن نعرف عن امتنا ما يغني معرفتنا بظروفنا .

دخلت أمتنا طور التكوين القومي منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، فسبقنا – في الزمان – أغلب أمم الأرض إلى الاستقرار وبناء الحياة المشتركة . وكان تكويننا القومي متميزاً ببدايته فميّز وجودنا القومي عن كثير من الأمم . ففي خلال أحقاب طويلة من الهجرة والصراع استقرت قبائل متجاورة في رقعة من الأرض يحصرها من الشمال البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس ، ومن الشرق هضبة ايران والخليج العربي ، ومن الجنوب المحيط الهندي وهضبة الحبشة والصحراء الأفريقية الكبرى ، ومن الغرب المحيط الاطلسي . وكانت تلك الجماعات القبلية الأصل متميزة بعضها عن بعض بما يميز القبائل في أول عهدها بالاستقرار على الأرض ، أي بالأصل الخاص ، واللغة الخاصة ، وبتراث خاص من الثقافة والعقائد والتقاليد والطور الحضاري . وعندما استقر كل منها في مكانه دخل مرحلة التكوين القومي ، ولو طال بها الاستقرار لتطورت أمماً متميزة . إلا أن الاستقرار لم يطل بأية جماعة منها حتى تتكون أمة ، ولم يطل بها جميعاً حتى تتكون أمماً متجاورة ، فقد اجتاحها موجات كاسحة من الغزو الخارجي ، أما من أواسط آسيا ، أو من أواسط أفريقيا ، أو من أوروبا كما ان موجات الهجرة الداخلية – السلمية والمقاتلة – لم تنقطع ، عابرة بجماعة ومستقرة في جماعة أخرى . وكانت فترات الغزو تعطل نموها وتعوق تكوينها القومي . وما ان ينحسر الغزاة أو يستقروا لينشط التكوين القومي حتى تدهمها – كلها او بعضها – موجة غازية أخرى . واستمر هذا الوضع فترات من الاستقرار فالاضطراب فالغزو فالاحتلال ، تحبس نمو تلك الجماعات عند دور التكوين القومي ، حتى ظهر الاسلام ثورة دينية وفكرية واجتماعية معاً .

وفر الاسلام للمجتمعات القبلية المستقرة في وسط شبه الجزيرة العربية رابطة مشتركة، تتجاوز التمييز القبلي، وتميز المسلمين عن غيرهم من قبائلهم ، ومن القبائل الأخرى، ولو كانت لها ذات اللغة، أو من أصل واحد. كانت السنين الأولى من الاسلام خلقا لمجتمع تخطت به القبائل مرحلة القبلية إلى طور اكثر تقدما. وعندما بدأ المسلمون بناء تاريخهم المشترك، في مكان محصور من الجزيرة العربية، كان المثل الأعلى (النقيض من المستقبل) الذى حدده الاسلام ووحدهم عليه، يتجاوزهم إلى الناس جميعا، ويتجاوز الجزيرة العربية إلى العالم كله. كانت الظروف قلة من المسلمين في أرض قليلة. وكان المستقبل عالما فسيحا من المسلمين. عندئذ كان التناقض بين ماضي المسلمين ومستقبلهم حادا، وصراعهما في نفس المسلم عميقا، فأصبح حل المشكلة بنشر الدعوة الطريق الوحيد إلى قناعة المؤمن وراحته. وطالما كانت المشكلة قائمة كان لا بد من أن تحل، فانطلق المسلمون، من حيث بدأت الدعوة، يبغون أطراف

الأرض، ليصل الاسلام بهم إلى الناس جميعا. اندفعوا إلى ما جاورهم من قبائل وأقاليم وأمم، غايتهم نشر الاسلام، لا تردهم عن تلك الغاية الحروب فيخوضونها- وهم قلة - يقينا منهم بأن غايتهم منتصرة. وحيث لا ينتظرهم السلاح يقدمون الدعوة - لا شيء غيرها- فيهتدي من يهتدي . ويصبرون على الذميين، تاركين لهم فرصة الاقتناع خلال صنع الحياة المشتركة. وكلما دخلت جماعة أو مجتمع أو إقليم أو أمة في الاسلام، بدأت تاريخها بالاسلام بداية جديدة نحو مثل عليا جديدة. غير أن الاسلام لم يلغ ما صنعه التاريخ من قبله، بل طوره إلى مستقبل اكثر غنى وأكثر خصوبة واكثر تقدما، أي اكثر حرية. فعندما توقف المد الاسلامي كان قد ضم إليه مجتمعات مختلفة في درجة تطور تكوينها الاجتماعي. كانت من بينها أمم أدركها الاسلام وهي مكتملة النمو مثل فارس، وكانت من بينها جماعات ومجتمعات لا تزال فى طور التكوين لم تستو أمما متميزة، اما لأن الاستقرار لم يكن قد طال بها إلى الحد الذي يتم به تكوينها القومى، مثل المجتمعات القبلية التي كانت تملأ أرض الجزيرة العربية، وإما لأن أمما أخرى كانت تفرض عليها إرادتها. فعوقت نموها، فلم تكتمل أمما، مثل كل الجماعات والمجتمعات التي كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية وامبراطورية فارس ، منها أغلب سكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط وشمال الجزيرة العربية. وقد كان أثر الاسلام بالنسبة الى كل من تلك المجتمعات مختلفا. فالأمم التي أدركها الاسلام وقد اكتمل وجودها القومي، كان الاسلام بالنسبة إليها إضافة أغنت تركيبها الداخلي وأمدتها بإمكانيات جديدة لمزيد من التطور، ولكنه لم يلغ قوميتها، فظلت أمما مسلمة ، لها وجودها القومي ، ولها دولتهما الواحدة ، وإن كانت تلك الدولة مشتركة بينها وبين مجتمعات أخرى .

أما المجتمعات التى أدركها ألاسلام وهى فى طور التكوين القومي لم تصبح أمما بعد ، فقد اكمل الاسلام تكوينها أمة . لم يكن الاسلام بالنسبة اليها عقيدة فحسب ، ولا إضافة إلى مقدرتها على التطور فقط ، بل كان قبل كل هذا عنصراً من عناصر تكوينها القومي . كان جزءاً من وجودها ذاته . تحققت لها بالاسلام وحدة الأرض ، ثم أخذت عنه لغتها الواحدة ، وصنعت في ظله تاريخها الواحد ، في اتجاه المثل الأعلى الذي حدده لها ، فأصبحت بهذا كله أمة عربية واحدة .

بتلك البداية تميزت الأمة العربية عن الأمم الأخرى التي دخلتها الرابطة الدينية بعد أن أصبحت أمما. فكان الدين بالنسبة إلى الأمة العربية، مصدر وجود، وبالنسبة إلى الأمم الأخرى كان الدين أداة تطور. و بتلك البداية ايضا كان الاسلام مميزاً للأمة العربية حتى عن الأمم الأخرى داخل العالم الإسلامي الواحد ، لأنها تكونت به أمة ، بينما كان الاسلام ، بالنسبة على الأمم المسلمة الأخرى ، إضافة إلى تكوينها القومي الذي تم من قبله . تميزت بلغة القرآن عن الأمة الفارسية والأمة التركية والأمة الأفغانية ... الخ ، حتى عندما كان الاسلام يشملها جميعا في دولة واحدة . وتمنيزت بوحدة الأرض التي امتدت إلى حدود فارس ، وإلى حدود تركيا ، وإلى حدود اسبانيا ، وحصرتها الصحراء والبحار من الجهات الأخرى ، حتى عندما كانت كل تلك الأرض بما فيها اسبانيا والصحراء ذاتها أجزاء من دار الاسلام . وصنعت من أرضها ، وبلغتها ، أنماطاً من الفكر والمذاهب والتقاليد والحضارة ، كانت تراثاً عربياً خالصاً ، حتى عندما كان الاسلام يطبع حضارات قومية عديدة بطابع مميز . وسنرى أثر كل هذا عندما تتفكك دولة المسلمين فيسفر العالم الاسلامي عن تلك الأمم التي دخلها إضافة إلى وجودها القومي ، وهي كما كانت أمما متميزة بوحدة الأرض ووحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة المصير ، ولكنه لا يسفر عن تلك

الجماعات والمجتمعات التي دخلها عندما كانت في طور التكوين القومي ، وهي على ما كانت عليه ، بل نجدها قد تكونت امة عربية واحدة في ظله .

بدأ الاسلام عقيدة تجمع المسلمين ، ولكنه عندما دخل عنصرا في التركيب القومي للأمة العربية أصبح مضمونا للحياة ، أسهم في بنائه المسلمون وغير المسلمين، فكان لهم تاريخا وكانوا به أمة واحدة . أصبح جزءا من الوجود القومى العربي، يقدم مع غيره من عناصر الظروف إمكانيات بناء مستقبل العرب جميعا، مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

فنحن العرب - مثلا- أيا كانت عقائدنا الدينية، لم نعرف في تاريخنا القومي أزمة الحرية التي عرفتها أوروبا في القرون الوسطى . لم نحتج إلى كتاب أو فلاسفة، من أمثال روسو، ليضعوا لنا نظريات تبرر أن الناس متساوون أمام القانون ، وأن لكل منهم حق الرأي وحق التملك وحق العيش ولم نقض قرونا لنعترف بالملكية حقا للنساء، ولم نخض حروبا لنكسب الحريات المدنية أو السياسية . لم تعوزنا يوما الحجة لندين الاستبداد، لقد كنا نخضع للاستبداد عاجزين عن مقاومته، متربصين به ، وكنا نعرف دائما أنه استبداد غير مشروع ، و كان المستبدون أنفسهم يعرفون. ونحن العرب- مثلا آخر- لم نعرف قط نظام الاقطاع الذي عرفته أوروبا. كانت لدينا ملكيات كبيرة من الأرض، تمكن أصحابها من الاستبداد الذي يخالف القانون والعرف والتقاليد والعقيدة السائدة . كنا نعرفه- حيث وجد في تاريخنا- عدوانا ماديا وكان المعتدون أنفسهم يعرفون . ولم يكن الاقطاع في أوروبا مجرد ملكيات كبيرة من الأرض، بل كان نظاما من الحقوق المشروعة التي يمارسها أمراء الاقطاع فى مواجهة تابعيهم . كان الاقطاع سيادة يدعمها القانون، وتؤيدها التقاليد والعقائد، وتطيقها الأخلاق، وقد يتغنى بها الفن قصيدا وألحانا. ولما لم نعرف الاقطاع نظاما لم نعرف البورجوازية ثورة فالبورجوازية الثورية كانت " الطبقة الوسطى " بين الاقطاعيين والفلاحين التي قادت ثورة التحرر من عبوديه النظام الاقطاعي الأوروبي . وكان خروج البورجوازيين على سيادة الاقطاع ثورة لأنها كانت تحطيما لاطار شرعي من النظم والقيم والتقاليد. أما الذين كافحوا ويكافحون استبداد كبار المالكين في أمتنا فإنهم لايحطمون حقوقا مشروعة، بل يدفعون عن أنفسهم وعن غيرهم اعتداء غير مشروع. إنهم حماة الحرية ولكنهم ليسوا بورجوازية. كذلك ملأنا العلم كشفا عن أسرار الطبيعة المادية، وأرسينا كثيرا من قوانين تحول المادة، ولم ننزلق إلى القيم المادية الأوروبية التى سادت في القرن الثامن عشر. وملأنا الفكر فلسفة وإجتماعا، ولم ننزلق إلى القيم الفردية التي سادت أووربا فى القرن العشرين . وملأنا الأرض حضارة، ولم ننزلق إلى القيم الاستعمارية التي سادت أوروبا و تسودها إلى حين .. الخ.

٤٢- الاسلام إذن هو الهيكل الأساسي الذي قام عليه بناء الحضارة العربية. إن كل عربى سوي هو ذو شخصية إسلامية حتى لو لم يكن مسلما. وإذا كانت الحضارة هي مصدر المعايير والقيم التى تفرق بين ما هو مقبول اجتماعيا وما هو مرفوض، فإن أي شاب عربى لا يكاد يكف طوال يومه عن الحكم بمقاييس حضارته على ما لا حصر له من الأحداث الصغيرة . أي التى يحكم في أمرها تلقائيا معبرا بذلك عن مكنون شخصيته . فالكذب " حرام " حتى لو كان أبيضا. والقسوة " حرام " حتى على الحيوانات ، والسخرية " حرام " حتى ممن يثيرها ، والحكم التلقائي على مخلوق بائس هو " حرام " ويؤكد بأنه " والله حرام "... والظلم "حرام " والحصول على أموال الغير بدون حق حتى برضاء هذا الغير " أو الضحك عليه والله ده حرام

" - وعدم التكافؤ بين الزوجين " والله حرام " ، والشفقة بصبية مشغولين بعمل شاق عليهم يعبر عنها العربي بقوله التلقائي " والله حرام " .

... وما يقال تلقائيا نصحا أو عتابا أو احتجاجا على المستغلين أو المغروروين أو المفترين أو المستبدين هو " يا ناس حرام عليكم " .. وإذا اعترض شخص من لا يعرفه يمازحه فاضطرب الغريب قيلى له تلقائيا : " يا شيخ سيبه حرام عليك " ... وإن فقدت الأم ابنها " فياحرام " . إلى آخر عشرات الألوف بل ربما ملايين من الأحداث الصغيرة التى لا تكف عن المرور بحياة العربي يقيمها حين لا يقبلها وقبل أن يعرف أسبابها، وبدون أن تكون له صلة مباشرة بها، وحتى لو كان حادثا مرحا... بأنها " حرام " ثم يفصح عن مصدر تلك القيمة حين يقول مؤكداً مذكرا: " والله حرام " . ولا يعلق بهذا أبدا على الأحداث التي يقبلها لأن أحد قيمنا الحضارية أيضا هو أن كل ما هو ليس حرام مباح .

يستوي في هذه الأحكام العربي المسلم وغير المسلم، الشاب والكهل والشيخ، ساكن المدن والمقيم في القرى والجائل في الصحاري، الرجال والنساء. اخترناها- أولا- لأن الشاب العربي يرددها منذ دخوله مرحلة الشباب بدون أن يختارها مذهبا. وثانيا لأنها أحكام تصدر بدون تحضير ودراسة ورجوع إلى المراجع . تصدر على السجية. وثالثا لأنها أحكام لا تصدر ضد أحد ولا يرجى منها أن تكون ملزمة لأحد ولكنها تعبير تلقائي عن الشخصية العربية في مواجهة موقف ليست هي طرفا فيه. رابعا لأنها أحكام سابقة على أية قواعد سلوك وضعية، وقائمة فوق أية قواعد سلوك وضعية، وباقية بعد أية قواعد سلوك وضعية يضمرها في ذاته حتى الذى يخالفها جهرا . خامسا لأنها أحكام حضارة المجتمع العربي تعبر عن ذاتها من خلال ما ينطق به الأفراد من أحكام . ومازلنا نملك سببا سادسا نتحدث عنه بعد قليل .

وما الجديد فى هذا؟.. إن لكل حضارة ضوابط سلوك تعبر عن ذاتها من خلال ما ينطق به تلقائيا الأفراد من أحكام . لكل حضارة ذلك التعبير المتداول في كتب الاجتماع الغربية : " تابوه " أي ضابط تحريم ؟ وهل يرجى من حديث عن الحضارة أن يأتي بجديد . إنما نريد ان نؤكد من جديد ما لم نكف عن تأكيده على مدى ربع قرن أو يزيد من " أن الاسلام هو الهيكل الاساسي للحضارة العربية وبالتالي الهيكل الاساسي للشخصية العربية التي تكتمل بناء في سن السادسة عشرة ، قبل ان يتعلم صاحبها ما هي الأديان ، وما هو الاسلام ، وما هي المذاهب ، وما هي الفلسفة ، وما هو علم الاجتماع ، وما هي نظم الحكم ، وما هي القوانين واللوائح والأوامر الادارية ... الخ .

ثم لنتقدم بهذا لما يعنينا في هذا الحديث بالدرجة الأولى . ونحسب أنه جديد .

حضارة جمعية :

٤٣- لم يحدث أبدا في تاريخ البشرية ان قامت حضارة غير جمعية بمعنى انها نسيج من المعتقدات والتقاليد والعادات والآداب... الخ، تصدر من مجتمع لتعود إلى المجتمع نفسه توحد بينه وبين أفراده فيصبح " الكل في الواحد والواحد في الكل ". لم يستطع علماء تاريخ الأجناس البشرية ولا علماء الحضارات المقارنة ان يقعوا على حضارة لا تؤدي وظيفتها في الحفاظ على

وحدة المجتمع الذي هي حضارته. كما لم يقعوا على حضارة عاشت - بفعل ادائها هذه الوظيفة – سنذكرها أقل من آلاف السنين... إلا حضارة واحدة سنذكرها بعد قليل

وفي كل الحضارات تلعب قيم التحريم دوراً أساسيا في تقوية الروابط الاجتماعية بما تؤدي إليه من تجانس بين الأفراد. فلننظر كيف أدت الحضارة العربية وتؤدي هذه الوظيفة. الحضارة العربية القومية التي قامت على قاعدة الاسلام ونمت واكتملت في ظله. وسننظر إليها من زاوية لا تختلف فيها المذاهب الاسلامية ، أعني ما هو مجمع على أنها أركان الاسلام ، أو العبادات ...

لقد درج الفقهاء على تقسيم الاحكام الاسلامية إلى عبادات ومعاملات . ولا تثير أحكام المعاملات أية صعوبة في التعرف على طبيعتها التشريعية أي انها واردة على علاقات بين الأفراد. إنما الذي قد يثير صعوبة في معرفة صلته بالعلاقات بين الأفراد هي احكام العبادات. فعندما يقول واحد من أعظم الفقهاء المحدثين علما بالدين والدنيا واحكمهم منطقا مثل الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ جامع الأزهر الأسبق، في كتابه " الاسلام عقيدة وشريعة " ان العبادات هي " العمل الذي يتقرب به المسلمون إلى ربهم ويستحضرون به عظمته ويكون عنوانا على صدقهم في الايمان به ومراقبته والتوجه اليه " وان المقصود من العبادات هو " تطهير القلب وتزكية النفس وقوة مراقبة الله التي تبعث على امتثال أوامره " تبدو احكام العبادات كما لو كانت واردة على علاقة كل مسلم بربه ومقصورة على هذه العلاقة أمراً وأثراً ، ويصعب علينا ان نذهب إلى غير ما ذهب إليه إمام جليل كان بمثابة استاذ أضاءت أفكاره النيرة لجيلنا مدارج الفهم الصحيح للاسلام .

ولكننا تعلمنا من القرآن أن الله غني حميد وانه سبحانه " رب الناس ملك الناس إله الناس " جملة وجمعا. ولم نهتد في القرآن إلى خطاب آمر أو ناه موجه إلى فرد إلا ما كان خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام أو ما جاء في قصص القرآن. أما غير هذا فالخطاب الامر أو الناهي موجه إلى جمع بصيغ الجمع أو المفرد النكرة الذي يفيد الجمع . فهم المؤمنون والمؤمنات أو هم من آمن بالله واليوم الاخر. ففهمنا إجتهاداً أن كل الأحكام التي جاء بها الإسلام واردة على علاقات جماعية بين الأفراد وليس على علاقة فرد بربه بما فيها أحكام العبادات. هذا بدون إنكار لما عدده الإمام الأكبر من حكم العبادات حين قال عن المقصود بها تطهير القلوب وتزكية النفوس وقوة مراقبة الله التي تبعث على امتثال أوامره. إذ عندما تكون أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه غير المتعلقة بالعبادات، واردة على علاقات بين الأفراد، فإن أحكام العبادات ذاتها تكون " إعداداً " للفرد ليكون " صالحاً " في علاقاته مع الاخرين امتثالاً لأوامر الله .

ثم نتأمل العبادات وأحكامها. أما العبادات فهي ما يعرف بأركان الاسلام الخمسة: شهادة الا إله إلا الله وأن محمداص عبده ورسوله . الصلاة . الصوم . الزكاة . الحج . وهي جميعا فروض ملزمة لكل مسلم متى توفرت في المسلم شروط التكليف بها. أما عن الشهادة فهي شهادة على النفس دون الغير. وأما الصلاة فهي صلاة بالنفس دون الغير. وأما الصوم فهو كف النفس عن المفطرات دون الغير. أما الزكاة فتخرج من مال النفس دون الغير . أما الحج فهو عند استطاعة النفس دون الغير إنها جميعاً عبادات لا يتوقف إداؤها إلا على المكلف بها فتبدو أعمالاً " فردية " أو " خاصة " غير ذات علاقة بالمسلمين الآخرين .

وهنا نعتقد أن الأمر على غير هذا وأن تلك العبادات تنشىء وتدعم علاقات اجتماعية بين كل مسلم وباقي المسلمين تترتب عليها آثار ملزمة في حياتهم.

فشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله مجرد تعبير على الايمان بالله ورسوله الذي يمكن أن يتحقق بدون التعبير عنه. وإنما هي إعلان من الشاهد بقبول انتمائه إلى الأمة الاسلامية بكل ما يترتب على هذا الانتماء من حقوق وواجبات وإلتزام بالشرائع والقواعد والاداب التي جاء بها الاسلام . لهذا لابد من الجهر بالشهادة . أما الشهادة المكتوبة فلا تكفي لثبوت الاسلام . (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) (آل عمران: ٨١) أما الصلاة فلا تصح إلا إذا ولى المسلم وجهه شطر القبلة التي يولي باقي المسلمين وجوههم شطرها (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (البقرة: ١٤٤). يصلي المسلمون فرادى وجماعات، وتختلف أركان الأرض توقيتا، ولكن صلاة كل منهم لا تصح إلا بالتقائها مع صلاة الآخرين في الاتجاه إلى بقعة واحدة من الأرض . اما عن الصوم فلو كان فرضا فرديا أو " خاصا " بعلاقة المسلم بربه لجاز أن يختار كل مسلم شهر صومه دون أن ينتقص ذلك من آثار الصيام وتطهير القلب وتزكية النفس وصحة البدن. ولكن الاسلام قد فرض على كل مسلم أن يصوم الشهر ذاته الذي يصومه باقي المسلمين وعينه بأنه شهر رمضان. فهو عبادة " جماعية ". أما الزكاة فليست مجرد تطهير وتزكية للمسلم (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم) (التوبة: ١٠٣) ليست مجرد أخذ من مال المسلم. ولكنها أخذ من المسلم لإعطاء الاخرين (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) (التوبة: ٦٠). والأمر من الحج أظهر. فهو ليس زيارة إلى بيت الله الحرام يقوم بها المسلم القادر ويتم مناسكها فتلك " العمرة " ولكنه فرض على كل مسلم استطاع إليه سبيلا ان يجتمع مع باقي المسلمين في مكان واحد في وقت واحد ليشتركوا جميعا في إداء مناسك واحدة .

وهكذا يتضح، كما نعتقد، ان كل العبادات في الاسلام " جماعية " لا بمعنى انها مفروضة على الجميع، ولكن بمعنى ان اداءها يتم جماعيا: فهي لا تصح من المسلم إن فقدت ركن الجماعية فيها. ان يشهد بينه وبين نفسه. ان يصلي في أي اتجاه. ان يصوم في أي شهر. أن يخرج من امواله الزكاة ولا يعطيها لأحد (يهلكها مثلا). ان يحج في غير الوقت المحدد لاجتماع المسلمين (يعتمر مثلا). الفروض ملزمة لكل مسلم مكلف سواء عرف الحكمة من فرضها أو لا. والحكمة هي الأثر الذي أراد الله تعالى له ان يتحقق بأداء الفرض. وحيث لا يأتي النص مبيناً الحكمة يجتهد في بيانها المجتهدون ويختلفون في اجتهادهم ولكن كثيرا منهم يذهبون بشكل عام إلى التمييز بين الاثار الدينية والاثار الدنيوية. فتكون الحكمة من كل فرض تحقيق مصلحة دينية او مصلحة دنيوية. والدارج ان الحكمة من العبادات تحقيق مصالح دينية ولهذا أصبحت عبادات. أما وقد رأينا كيف أنها عبادات جماعية فإننا نعتقد أنه من المصالح أو الحكم المقصود تحقيقها بأداء الفروض مصلحة أو مصالح دنيوية والله غني عن عباده وما يعملون.

إن تكن العبادات تطهيرا للقلوب وتزكية للنفوس فحكمتها اصلاح الإنسان حتى يبقى صالحاً للعمل الصالح في الدنيا كما قلنا من قبل. ثم يأتي الركن الجماعي للعبادات ليكشف عن حكمة نراها لازمة لصلاح كل مسلم وصلاح المسلمين معاً. اولئك المسلمون الذين يتوزعون مكاناً في أركان الأرض ويفترقون مصالحاً ويختلفون عقولا وأهواء وشهوات وينتمون إلى جماعات من

أسر أو عشائر أو قبائل أو شعوب أو أمم متفرقة ومتمايزة، ولكنهم حيث يكونون لا تصلح حياتهم إلا حيث يكونون قابلين قادرين على العمل الجماعي بحكم أن الناس جماعات، وكبح جماح النزوع الفردي بحكم أن الفرد من غير جماعة محال. فجاءت العبادات في الاسلام تهذيبا للنزوع الفردي " الغريزي " وتدريباً لكل مسلم على قبول وممارسة العمل الجماعي. بأن يشهد " للناس " بألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. بأن يصلي مع " الناس " جماعة ما أمكن ذلك ولكن في كل الحالات أن يتجه إلى القبلة التي يتجه اليها " الناس ". بأن يصوم الشهر الذي يصومه " الناس " وأن يفطر معهم . بأن يخرج من أمواله زكاة لمن يستحقها من " الناس ". بأن يحج في الوقت الذي يحج فيه " الناس " وإلى المكان الذي يحج اليه " الناس " بأن يشترك مع " الناس " في كل هذه العبادات سواء كان يعرفهم أو لايعرفهم ، له مع أحد منهم أو مع بعضهم مصلحة أو ليس له، ينتمي إليهم أسرياً أو عشائرياً أو شعوبياً أو قومياص أو لا ينتمي. ذلك لأن الواقع من أمر هذه الحياة الدنيا انه يعيش مع الناس ولا يستطيع إلا أن يعيش معهم، فله مصلحة دنيوية متحققة يقيناً في أن يربي نفسه على أسلوب الدنيا: أسلوب العمل الجماعي " لاغير ".

والله اعلم.

٤٥- إنها ليست طقوساً ولكنها تدريب وتربية. الشهادة مدخل إلى الانتماء، ثم الصلاة خمس مرات كل يوم . الصوم شهراً كل عام. الزكاة كل عام. الحج كلما كان ممكناً، منذ ما قبل الدخول في مرحلة الشباب وعلى مدى هذه المرحلة، وعلى مدى العمر كله، لتقهر الفردية وتشكل قيمة حضارية اسلامية عربية هي أن الفردية " حرام ".

النقيض المنقض

٤٦- قلنا من قبل أن ثمة حضارة غريبة عن كل الحضارات التي عرفتها البشرية، انها الحضارة الغربية أوروبية المنشأ. ان لها كل خصائص الحضارات. لها عقائدها وتقاليدها وآدابها وقيمها.. ومع ذلك فإنها توشك أن تموت قبل ان تنقضي من عمرها ثلاثة قرون لأنها لأسباب تاريخية خاصة بظلمات القرون الوسطى في أوروبا، قد نشأت عاجزة عن أداء وظيفتها في التوحيد التلقائي بين الفرد والمجتمع إذ قامت على هيكل أساسي هو " الفردية "... الفرد في مواجهة وضد المجتمع .

٤٧- إن قانون التناقض الجدلي كامن في الإنسان وراء كل حركة اجتماعية. فتثير كل حركة نقيضها. وحينما يتحول الدين إلى كهنوت، ينزل بالاله إلى الأرض تجسيداً في بشر، أو يصطنع لله ممثلين او نواباً أو وكلاء من البشر يزعمون أنه- جل جلاله- أقرب إليهم من غيرهم، يلهمهم الصواب ولا يلهم من سواهم، فهم وحدهم حفظة شريعته القائمون على تفسيرها وتطبيقها حلا دون باقي المؤمنين، ثم يجتمعون متعاونين في منظمات او مؤسسات يقال لها " دينية " ويكونون هم فيها " رجال دين " تفرض على المؤمنين مذاهبها، فتعطل ملكاتهم العقلية خوفاً من بطشهم.. لابد، نقول لابد، أن تولد من رحم الكهانة الشائهة حركة ردة إلحادية شائهة. والعكس صحيح، حين تتضخم أحشاء الإلحاد بالكفر البين تكون بياناً بقرب مولد حركة كهنوتية شائهة

لا حيلة لأحد في هذا. وبناء عليه يمكن فهم كثير من الظواهر التي يقال لها دينية والظواهر الإلحادية في تاريخ كثير من المجتمعات.

ولقد ولدت الحضارة الغربية نقيضاً من رحم الكنيسة الكاثوليكية التي تحولت إلى مؤسسة كهنوتية قاهرة باطشة مستبدة بالعقول والنفوس والأموال فجاءت ردة إلحادية. إن كل الجامعات في الوطن العربي تدّرس الشباب العربي تاريخ الفلسفة والنظم في أوروبا... ولا بد ان يكون الجامعيون قد عرفوا الهولندي هوجو حروتيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥) والانجليزي توماس هوبز (١٥٨٨- ١٦٧٩) وجون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤) وديفيد هيوم (١٧١١-١٧٩٦) وجيرمي بنتام (١٧٤٨ -١٨٣٢) وجون ستيورات ميل (١٨٠٦-١٨٧٣) وهربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣)، والفرنسيين جان جاك روسو ومونتسكيو والطبيعيين (الفيزيوكرات) موريس دي ريفيير، وكيزني، ودوبون دي تيمور، كما عرفوا سبينوزا... الخ.

إن كل هؤلاء وغيرهم كثير، هم مهندسو الهيكل الأساسي للحضارة الغربية وهكذا يقدمونهم إلى شبابنا العربي في الجامعات . ثم قد يخفون عنهم أنهم في الوقت ذاته فلاسفة الإلحاد ومحركي تياره الجارف الذي اجتاح أوروبا منذ ثلاثة قرون . لقد كان عليهم أن يستبدلوا الايمان بالله خالقاً وهادياً بما يخلق من دونه سبحانه ويهدي. فذهبوا على خلاف طفيف فيما بينهم، إلى ان الطبيعة هي الخالقة، وأن " القانون الطبيعي " هو الهادي.. فلما بدأوا في تفسير او تبرير ظاهرة " المجتمع " وعلاقته بالفرد او علاقة الفرد به، زعموا اولاً أن الإنسان الفرد كان موجوداً قبل أن يوجد المجتمع، وانه كان مطلق الحرية يفعل ما يشاء، وان عدوان الأفراد بعضهم على بعض كما قال هوبز ولوك أو رغبة الأفراد في التعاون كما قال روسو قد دفعتهم إلى التوافق على إنشاء مجتمع بشروط تختلف عند هوبز عنها عند لوك عنها عند روسو أهمها أن يحفظ لهم المجتمع حرياتهم الطبيعية ويحميها. فكانت الفلسفة الاجتماعية المصوغة فيما يقال له " العقد الاجتماعي " جوهرها أنه مادام المجتمع ثمرة إرادة الأفراد، فعليه ان يحتفظ، ويحافظ، وينمي، " الحرية الفردية ". وشعارها التطبيقي: دعه يعمل، دعه يمر.

على هذا الهيكل قامت النظم السياسية التي يقال لها ديمقراطية غربية، والنظام الاقتصادي الذي يقال له الرأسمالية، والنظام القانوني الذي يقال له حرية الارادة، والنظام الاخلاقي الذي يقول إن كل فرد حر في أن يفعل ما يشاء، والنظام الاجتماعي الذي يقول إن المنظم لعلاقات الأفراد حين يسعى كل فرد إلى تحقيق ما يريد هو المنافسة الحرة . وهكذا انطلق الأوروبيون في سباق محموم فيما بينهم نشأت خلاله عناصر حضارية جديدة، منها ما تبهرنا ثمراته مثل الاكتشافات العلمية والتقدم المذهل في أساليب وأدوات قهر الطبيعة وتسخيرها، حيث قد رفعت تلك الحضارة عن كل فرد قيود وهموم " المجتمع " فانصبت قواه كلها في مجرى واحد هو السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لغاياته، والتقدم المادي أفراداً بصرف النظر عما يصيب المتخلفين في المجتمع الواحد بل ولو تقدما على جثث اولئك المتخلفين في هذا المجتمع الواحد او في المجتمعات الأخرى... وقد كان العالم غير الأوروبي كله، بما فيه العالم العربي، من بين الضحايا الذين تقدم الأوربيون على جثثهم . ولقد كانت الشعوب كلها بما فيها الشعب العربي منبهراً بتقدم الأوروبيين حتى وهم يتقدمون على جثثه. ذلك لأن من خفايا النفس البشرية أن المثل الأعلى للمستعبدين هم سادتهم. إن الصورة المبهرة للحرية في تصور كل عبد متجسدة في سيده. ولله في خلقه شؤون.

ولكن هذا الانبهار كان إلى حين

وقد جاء الحين

٤٨- تقول دراسة وضعتها " لجنة المجتمعات الأوروبية " في بلجيكا عن الشباب الأوروبي بمناسبة العام الدولي للشباب أن علاقة الشاب بأسرته تنتهي عند سن السادسة عشرة، وإنه يعتبر نشاطه الجنسي منذ بدايته مع سن المراهقة من شؤونه الخاصة التي لا يجوز لأحد أن يتدخل فيها، وإنه ابتداء من مرحلة الشباب لا يهمه إلا الخوف من البطالة، وأن الشباب عديمو الاهتمام بما يدور في مجتمعاتهم. ويقول جيرالد باكمان الأستاذ في معهد الدراسات الاجتماعية في جامعة ميتشجان بالولايات المتحدة الأميركية في كتابه " نظرة الشباب إلى المشكلات الوطنية: ١٩٧١ " ان الشباب لا يعيرون المشكلات الوطنية أي اهتمام، وحين يثار اهتمامهم لا يجدون ما يقولونه وإن كانوا مهتمين إلى أقصى درجة بحرب فيتنام يريدون أن تنتهي حتى لا يتعرضوا لمخاطر الموت فيها، ولكن ليس لديهم أية فكرة عن كيفية إنهائها. وقد وصل عدم اهتمامهم بالشؤون الوطنية أن ثلث الطلاب في الجامعات ميدان البحث لم يعرف أي منهم اسم عضو مجلس الشيوخ في ولايته. وتقول نشرات هيئة الأمم المتحدة أن قد انعقد في مرسيليا (فرنسا) ما بين ٢٤ و ٢٧ أكتوبر ١٩٨٣ مؤتمر دولي لدراسة ظاهرة " أبناء الشوارع ". وأبناء الشوارع هؤلاء ليسوا أبناء الريف في العالم الثالث الذين تسمح لهم التقاليد بأن يعيشوا أيامهم جائلين شاردين خارج الدور والمنازل ثم يعودون. وليسوا يتامى أو ضالين أو لقطاء ولو كانوا كذلك لهان الأمر. ولكنهم دخلوا عالمهم من أبواب اليتم أو الضلال أو التخلي أو الشرود ثم تكيفوا مع البيئة التي تشكلها الشوارع والأزقة والأبنية المهجورة بما يسودها من قواعد التشرد وتقاليده وآدابه أيضاً ، وهي قريبة الشبه بما يذكره لنا التاريخ عن حياة الإنسان البدائي قبل أن تعرف البشرية ضوابط السلوك الإجتماعية والدينية والخلقية والتشريعية. إنه عالم اغتراب عدائي من مجتمع الاخرين . اتخذ من الشوارع حدوداً عازلة بينه وبين مجتمع آخر يرفضه ويقاوم بأساليب " شوارعية " حقاً العودة إلى الاندماج فيه. لقد بلغ نمو عالم أبناء الشوارع في بعض مدن فرنسا حداً حمل السلطة الفرنسية على أن تعترف بوجوده وتتعامل معه وتسمح له بقدر من الاستقلال في تنظيم وإدارة شؤون رعاياه وان يشكلوا من انفسهم جماعة قيادية. قريبة الشبه بالحكومة، مقرها مدينة " بيسين " قريباً من مرسيليا، تباشر سلطاتها بالتشاور مع ممثلي السلطة الرسمية.

اما في الولايات المتحدة الأميركية حيث تقاس الظواهر الاجتماعية كلها بمقاييس مالية فتقول مارجريت جوردون في كتابها عن " مشكلات الشباب : ١٩٧٩ " إن ١٦ % من صغار البشر في نيويورك ينتمون إلى هذا العالم القائم خارج حدود المجتمع وقوانينه. وتنقل عن ستانلي فريد لاندر ما قاله بعد دراسة ميدانية في ثلاثين مدينة أمريكية، ما قلب رأساً على عقب كل ما يعرفه عالمنا من علاقة بين البطالة والجريمة . كان المستقر من المعرفة أن البطالة من أسباب الجنوح إلى الإجرام أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد أصبح الإجرام أحد أسباب البطالة. ففي عالم أبناء الشوارع وجدت " المنظمات الإجرامية " أو " الجريمة المنظمة " جيشاً متزايد العدد من الذين يعرضون قوة عملهم في مقابل أجور اكثر ارتفاعاً من الأجور المتاحة في العمل المشروع بالإضافة إلى متعة الإعتداء على المجتمع الذي يرفضونه. وقد بلغت جملة ميزانيات المنظمات الإجرامية في الولايات المتحدة ، كما تقول مارجريت جوردون، ٢٥ مليار دولاراً .

انهم ابناء الأسر التي قال عنها فيكتور بالدريج في كتابه " علم الاجتماع " المشار اليه من قبل أن جدار العفة فيها يتصدع تحت ثقل التقدم الرأسمالي الصناعي ، وان الاحصاءات المتحفظة تشير إلى أن ٢٥% من الزوجات لهن علاقات جنسية برجال غير ازواجهن ، وان ما بين ٥٠ و ٦٠% من الرجال يمارسون الزنى ، وان استطلاعات الرأي قد اثبتت أن هناك اتجاهاً عاماً نحو التسامح مع هذا " النشاط " ثم يرتب نتائج هذا الجنوح فيقول إن ٢٥% من حالات الزواج تنتهي بالطلاق سنوياً ، أما عن الأسر التي لا تنتهي بالطلاق فيقول فرديناند لوندبرج ، الأمريكي ، في كتابه " الثرى والثرى الفاحش : ١٩٦٨ " أن قانون المنافسة الحرة بين الأفراد في المجتمع الأمريكي قد أدى إلى نشوء عقيدة مدمرة هي عبادة النجاح الفردي خربت الحياة الاسرية حتى للناجحين . وينقل عن كتاب كليفلاند أموري " من الذي قتل المجتمع ؟ " قوله إنه طبقاً للدراسات التي قام بها علماء النفس والأطباء والباحثون الاجتماعيون في شؤون " الاسرة " تستهلك الشركات الجانب الأكبر من وقت وجهد وحماس الشباب ، فيتحولون الى نفايات في منازلهم عاجزين عن أن يكونوا أزواجاً أو آباء . وحين لا يؤدي هذا الى الطلاق تبقى علاقة الزوجية قائمة اسمياً بين زوجين متآكلين لا يهتم أحدهما بالآخر ، يعانيان كل أنواع المشاعر المريضة بما فيها الشعور المزمن بالوحدة ، والاحباط الجنسي ، وإدمان المخدرات والخمور .

ويذكر فرديناند لوندبرج أن دراسة شاملة للزوجات في منطقة شيكاغو قد اثبتت انهن لا ينظرن الى شخصيات ازواجهن كأزواج بل كمورد لابد منهم لتكلفة الزواج والأبوّة ، وأن قليلاً جداً منهن لديهن أية فكرة أو أي اهتمام بنوع العمل الذي يقوم به الأزواج ، وان ثلث الزوجات في منطقة شيكاغو يعتبرون أن الزوج خارج تكوين الأسرة وأن الأسرة هم الأم وأولادها فقط ، أما الأب فهو العائل المالي من خارجها فهو لا يقوم بوظيفة " الوالد " أصلاً ..

٤٩- فما هي القيم التي يتلقاها الطفل حتى يصبح شاباً من مثل هذا المجتمع؟ ما هو الهيكل الأساسي للشخصية الغربية كما تقيمه حضارة مادية فردية رأسمالية في الشباب؟.

يجيب الفيلسوف الفرنسي موريس ديفرجيه في كتابه " علم الاجتماع السياسي: ١٩٦٨ " بقوله إن صعود البرجوازية (الرأسمالية) في القرن التاسع عشر قد خلق انطباعا بأن السلطة ستقوم فيما بعد هذا البروز على أساس المال وأن ذلك كان تقدماً.. ولقد كان هذا الانطباع نتيجة لكون محدثي الثراء البورجوازيين التافهين المظهريين إجتماعيا قد حلوا محل الطبقة الغنية البائدة التي كان أفرادها متميزين بالأصالة والرقي. كما كان راجعاً أيضا إلى حقيقة أن الارستقراطية كانت تقيم سلطتها على الثروة وتقاليد الفروسية معاً وقد غطت الفروسية وقيمها البطولية إلى حد كبير سكلى عنصر الثروة واخيراً فقد كان هذا الانطباع راجعاً إلى أن البرجوازية قد أقامت نظاماً من القيم على أساس الثروة أيضاً . ولكنه في هذه المرة صريح في أن المال هو مصدر القوة وليس مميزا لها فقط . لقد كانت الارستقراطية تعشق الثروة ولكنها لم تكن تتفاخر بها علناً على الأقل. أما البرجوازية فتتباهى بوقاحة بأن المال هو كل شيء ولا تكف عن تمجيده .

ويقول شومبيتر في كتابه عن " الرأسمالية والديمقراطية: ١٩٤٣ " أن الطبقة البرجوازية التجارية الصناعية قد ارتقت على انقاض السادة الاقطاعيين بفضل مهارتها في شؤون المال. وقد صيغ المجتمع البورجوازي في شكل اقتصادي محض. وأرسيت أسسه وقامت عمده وبني

هيكله من مواد اقتصادية. أما البناء بمجموعه فهو بناء حياة اقتصادية، الخطأ فيها خطأ مالي، والجزاء فيها جزاء مالي. يمتاز فيها من يكسب مالياً ويخطيء فيها من يخسر مالياً .

٥٠- هذه هي الحضارة النقيضة للحضارة العربية على جميع المستويات. حضارتنا قومية وهي حضارة فردية. حضارتنا إسلامية (روحية) وحضارتهم ملحدة (مادية).. حضارتنا إنسانية و هي حضارة إقتصادية .

وهذه هي الحضارة التي يريدون ويحاولون فرضها على أمتنا موجهين ضربتهم إلى الشباب عامة. وإلى بدايات مرحلة الشباب خاصة، عن طريق إغراء الشباب المتطلع إلى أن يلعب دوراً في حياة أمته بأن يقلد الشباب الغربي ويتخذ منه مثلا أعلى فيما حققه من تقدم مادي، بدون استفزازه بالكشف عما يستدرج إليه من عقائد وقيم وتقاليد وعادات صاحبت هذا التقدم المادي مستغلين قلة خبرته ولكنهم ينقضون هيكل شخصيته " خطوة خطوة ". كل من يعرف ألف باء علم الديانات المقارنة يعرف أن الكهانة الكنسية والمذهب العلماني وجهان لعملة أوروبية كاثوليكية واحدة . فحيث لا كهانة لا علمانية. وحيث كهانة لا بد من علمانية. ولما كانت حضارتنا إسلامية، وليس في الاسلام كهانة فلا محل في مجتمعنا للعلمانية أو الانشغال بها. ولكنهم يصرون على أن يعلموا شبابنا العلمانية ويمجدوها ويربطوا بينها وبين التقدم المادي الذي حققه الأوروبيون. وحين تندس مباديء العلمانية في أذهان شبابنا العربي لن تجد كنيسة إسلامية لتنقضها، فإما أن تشجع او تنشيء مؤسسة كهنوتية باسم الاسلام لتنقضها وإما أن تنقض الاسلام كله فتحوله إلى " عبادات " تقول أنها علاقة بين الفرد وربه لا تمتد إلى نظم الحياة.

وتكفي الملاحظة المجردة من أي علم لتعرف أن الفرد الواحد الأحد لاوجود له الآن ولم يعثر عليه أحد من قبل ولو تصوروا إلا تلك الفترة التي لا يعلمها إلا الله التي بقي فيها آدم وحيداً قبل أن تخلق حواء. وأن كل فرد هو جزء من مجتمع ولو كان الولد الوحيد لوالديه. ولكنهم يعلمون شبابنا أن للإنسان الفرد حريات وحقوقاً سابقة على وجود المجتمع، حتى لو كان هذا المجتمع والديه وأن ليس للمجتمع ولو كان من والدين أن " يتدخل " في ممارسة هذه الحقوق والحريات، ويربطون بين التقدم المادي الذي حققه الأوروبيون وبين الحرية الفردية ويمجدونها. وحين تندس القيم الفردية في أذهان شبابنا العربي تنفرط العلاقة القومية أولا لتبرز العلاقة الاقليمية ثم تنفرط هذه العلاقة لتبرز العلاقة الطائفية ثم تنفرط هذه لتبرز العلاقة الأسرية ثم تنفرط الأسر ليبرز الفرد الذي يقدسونه.

إنهم يفككون أمتنا قطعة قطعة وما يفككون إلا حضارتنا عنصراً عنصراً فلا يفعلون إلا تفكيك شخصيتنا العربية هيكلا هيكلا، وحين يصبح الشاب العربي فرداً فعليه أن يجري لاهثاً في سباق المنافسة الحرة لعله يدرك النجاح المادي. ويصبح الثراء هو غايته، والمال هو محور حياته، ويحتكم في سباقه الحر من أجل الثروة إلى القوانين البيولوجية التي تحتكم إليها الحيوانات في الغابات: البقاء للأقوى. ولما كان الغزاة هم الأقوى فإنهم يفترسونه ويهضمونه ويتمثلونه... ثم يفرزونه برازاً عفناً .

نهاية المطاف إذن أنهم يريدون افتراس أمتنا.

فهل ينجحون؟

ثورة الشباب :

٥١- في مايو ١٩٦٨ اندلعت في جامعة باريس (السوربون) ما أسميت بثورة الطلاب ، حيث استولى الطلاب على الجامعة وتولوا ادارتها بما في ذلك اختيار المواد التي تدرس فيها ومناهج تدريسها . ولم يتم اخماد تلك الثورة الطلابية إلا بعد أن اقتحمت قوات الأمن الفرنسي حرم الجامعة العتيدة وشلت بالقوة العنيفة حركة المقاومة فيها ، وفضت اعتصام الطلاب ، وقبضت على مئات منهم وفرقت الآخرين . وقد روّع الرأي العام الفرنسي أن تنتهك حرمة الجامعة أكثر مما روّعته ثورة الطلاب وضحايا العنف المتبادل بينهم وبين قوات الأمن . فقد كانت حرمة الجامعات وحصانتها قد تحولت على مدى قرون طويلة إلى أن تكون إحدى التقاليد الحضارية المستقرة التي يجزع الناس كافة إذ تخترق أو تضطرب . ومن خلال الالتفات المتوتر إلى خطورة خرق هذه التقاليد الحضارية التفت الرأي العام إلى ماوراء ثورة الطلاب .

كان أول ما تبين أن ثورة الطلاب في جامعة باريس هي امتداد لثورة أكثر شمولاً تجتاح الولايات المتحدة الأمريكية يسمونها " الثورة الثقافية المضادة " ويرمزون لها بإسم " الزهرة الطفلة " يقوم بها الشباب عامة ، وليس الطلاب خاصة ، ضد اغلب ضوابط السلوك التقليدية في مجتمع رأسمالي صناعي متقدم تكنولوجياً . كما تبين أن أحد المحركات الأساسية لتلك الثورة الشبابية الممتدة عبر القارات كتاب من تأليف مفكر اسمه هربرت ماركوز عنوانه " الانسان ذو البعد الواحد : ١٩٦٤ " .

وأفكار ماركوز هي محاولة توفيق ، أو تلفيق ، ما بين مذهب سيجموند فرويد في علم النفس وبين مذهب كارل ماركس في علم الاجتماع . كلاهما حاول أن يحدد العوامل الأساسية التي تتحكم في اتجاهات الفرد ومواقفه وسلوكه في المجتمع . فرويد يردها إلى المحاولة الفردية الشعورية وغير الشعورية لحل التناقض بين الغريزة الجنسية كمحرك أساسي للفرد وبين الضوابط الاجتماعية التي تحول دون " حرية " إشباع تلك الغريزة . وماركس يردها إلى المحاولة الطبقية الواعية لحل التناقض الكامن في اسلوب الانتاج بين قوى الانتاج (البشر) وعلاقاته (الملكية الخاصة) في المجتمع غير الاشتراكي . فيأتي ماركوز ويلاحظ ام مجتمع الوفرة الرأسمالي الصناعي المتقدم قد أذاب التناقض في اسلوب الانتاج فأصبح الأفراد والطبقات الذين كانوا من قبل قوى معارضة متحدي الموقف مع الطبقة الرأسمالية بدون حاجة إلى إرهاب مكشوف وتحولوا إلى مساهمين في تدعيم المجتمع الرأسمالي الاستهلاكي فلم يعد التغيير ممكناً من خلال الصراع الطبقي ولا أصبحت الطبقة العاملة (البروليتاريا) أداة تغيير المجتمع الرأسمالي الصناعي المتقدم ذي الانتاج الوفير . فالتفت ماركوز إلى مالايزال باقياً من ضوابط الغرائز الجنسية واعتبرها قهراً وإعداماً للحرية بالقدر الكافي لبدء عملية التغيير منها لتتحول بعد ذلك إلى التغيير السياسي . فاختار الشباب كقوة مرشحة للتغيير وقادرة عليه . فدعا الشباب دعوة حارة وملحة إلى الثورة ... وكانت الثورة . وقال : " إنني أرى في معارضة الشباب بالذات لمجتمع الوفرة أهمية تفوق أهمية النتائج المباشرة لهذه المعارضة . إن معارضة الشباب – وهذه هي الأهمية – أصبحت تربط بين الثورة الغرائزية وبين الثورة السياسية في نفس الوقت " .

وقد لخص ماكوز نظريته كلها خلال حوار علني في " مسرح الأفكار " في نيويورك عام ١٩٦٨ دار بينه وبين نورمان ميلر الشاعر الأمريكي صاحب كتاب " لماذا نحن في فييتنام " وآرثر سلزنجر المؤرخ الأمريكي واشترك فيه روبرت نويل الشاعر الأمريكي الحاصل على جائزة بولتزر (نشر ملخص وقائع الحوار في مجلة الهلال القاهرة في أول اكتوبر ١٩٦٨) .

قال ماركوز وهو يتحدث عن المجتمع الأمريكي :

" إنني اعتبر المجتمع سويا – أو غير معتوه – إذاكان يستخدم موارده التكنيكية والمادية والثقافية لا لزيادة الاسراف ، والتخريب ، والاستهلاك الكاذب ، ولكن لكي يقضي على الفقر ، والغربة ، والتعاسة ، ففي مجتمعنا القائم لسنا نجد هذه الاغلبية التي تتكون على أساس الوعي الحر والرأي الحر . ولسنا نجد هذه الاغلبية التي تتكون على أساس التعليم المتساوي بالنسبة إلى الجميع . ولا على أساس إتاحة الحرية المتساوية لمعرفة جميع الوقائع . إننا أمام أغلبية مصطنعة و " نمطية " يصنعها تعليم مصطنع ونمطي وإعلام مصطنع ونمطي . بمعنى آخر لا أظن هذه الاغلبية حرة مع أن روح الديمقراطية ذاتها هي ان يكون الشعب سيداً وحراً . كانت هذه فكرة جان جاك روسو وفكرة ستيوارت ميل . وهذه هي الفكرة التي دافع عنها كبار المدافعين عن الديمقراطية منذ البداية .

" ولم يكونوا يقصدون الشعب كمجموعة ولكن الشعب " كأفراد " ، حقاً يستطيعون التفكير لأنفسهم ، ويحسون بانفسهم ويكونون أفكارهم الخاصة دون أن يخضعوا للضغوط المرعبة التي تمارسها القوى الخاصة والأحزاب السياسية وكل الأطر القائمة الآن " .

٥٢ – ويقول فيكتور بالدريدج عالم الاجتماع الامريكي في كتابه " علم الاجتماع " أن ثورة الشباب التي بدأت في الستينات في الولايات المتحدة الأمريكية قد انتشرت وانتصرت وأصبح كثير من الأمريكيين يتطلعون إلى التغيير ويحاولونه على هدى مبادئها . وتبدو دلائل هذا الانتصار من تغيير معايير الانتماء التي كانت سائدة من قبل . فمنذ سنين طويلة كان ثمة اعتقاد سائد في الولايات المتحدة الأمريكية على أن على كل فرد أن يلتزم قيماً ومعتقدات اجتماعية واحدة . ولما كان الشعب الأمريكي يتكون من مهاجرين وافدين إليها من امم أخرى يحملون في ذواته القيم والمعتقدات واللغات والتقاليد الخاصة بالأمم المهاجرين منها فقد سادت فكرة ان وضع كل اولئك البشر في " بوتقة صهر " تهيمن عليها وتحركها الطبقة الوسطى البضاء البروتستانتية السائدة كفيل بأن تطرح كل فئة قيمها الخاصة وتذوب في تلك الطبقة الوسطى وتتمثل قيمها ومعتقداتها وتقاليدها . وكانت الطبقة الوسطى البيضاء البروتستانتية تعول تعويلا حاسما على برامج التعليم ووسائل الاعلام حيث تعرض خصائصها كمثل أعلى .

غير انه ابتداء من الستينات رفضت كثير من الجماعات هذه النظرية وطالبت بأن تحتفظ بمميزاتها الحضارية وان تكون تلك المميزات محل حماية واحترام . وبأن يسمح لكل جماعة أن تعيش حياتها الخاصة طبقاً لقيمها الحضارية الخاصة ، وان تتكلم لغتها وأن تكون لها مدارسها الخاصة ، وان تتحول الولايات المتحدة الأمريكية الى مجتمع من جماعات متميزة ومتعددة حضارياً ومتعايشة بدون قهر وقد ادى هذا إلى أن حلت فكرة قبول التمايز محل فكرة المجتمع المتجانس .

٥٣- لقد أخطأ ماركوز خطأ جسيماً فيما نسبه إلى جان جاك روسو . ولكن هذا لا يهم بالنسبة إلى موضوع حديثنا . المهم أن ماركوز قد كشف في الفقرة الأخيرة من حديثه أنه الابن الشرعي لذات الحضارة الفردية التي يحرض الشباب على اثورة ضد مراحل نضجها وإثمارها . فهو معني بلفرد وغرائزه وحريته وتفكيره وثورته ضد الضوابط الاجتماعية . فلنقل ضد المجتمع . إنه يرى الانسان الفرد الحر اللامنتمي إلا لذاته . ويتصور ان المجتمع الرأسمالي الصناعي المتقدم تكنولوجياً ذا الوفرة ، الذي يتحول الناس فيه إلى حيوانات استهلاكية غريبة او مغتربة طارئاً على مجرى تطور الحضارة الفردية في حين أنها أقصى ما وصل إليه تطورها .. إنه يراها تنهار فيحرض الشباب على الثورة ليبقيها قائمة . لقد فضحه مفهومه عن الاغتراب . إن الاغتراب عنده اغتراب عن " الذات " . فالأصل عنده والبداية أن الانسان ينتمي لنفسه ، لغرائزه ، لمصلحته ، لقيمه ، لما يريد ان يحققه ، ووراء هذا المفهوم الخاطيء خطأ أكثر جسامة وهو اعتقاده أن الانتماء اختيار إرادي فهو يدعو إلى شحذ الارادة لالغائه واستبداله .

فما الذي اسفرت عنه ثورة الشباب . انتهت إلى لا شيء في فرنسا حيث الحضارة القومية تقاوم منذ قرون الاغتراب الفردي . أما في الولايات المتحدة ، حيث اجتمعت أخلاط من الجماعات الحضارية " الاثنية " المهاجرة فقد انتهت ثورة الشباب إلى الانتصار على محاولة تقريبها وصهرها في بوتقة الجماعة البروتستانتية سكسونية الأصل . وفشلت محاولة قرنين من التغريب . وأظهر حتى اطفال الذين استجلبوا بالقوة من أفريقيا منذ قرنين أنهم ما يزالون يحملون في شخصياتهم بقايا من حطام الهياكل الحضارية التي حملها أجداد أجداد أجدادهم .

عذاب الشباب العربي :

٥٤ – إن تجربة صهر الحضارات في الولايات المتحدة قد فشلت إذن . وبالتالي ليس لدينا أي شك في ان كل غزوات الامبريالية الحضارية التي يشنها على أمتنا الغرب الامبريالي ستفشل . سنبقى امة عربية واحدة ذات حضارة عربية اسلامية ، ذات مصير واحد وسيهلك الشاردون . هذا لاشك فيه . ليس لدينا شك في ان أجيالاً من الشباب العربي سترد هذا الغزو . ولكن متى ؟ .. بعد عذاب طويل يعيشه بعض الشباب العربي الآن وربما يمتد إلى أولادهم حين يبلغون مرحلة الشباب . عذاب يعرفه أطباء العقول ، وأطباء الأعصاب وأطباء النفوس ، الذين يرددون فيما يكتبون أنه إذا اسبعدنا الأسباب البيولوجية والكيميائية فإن السبب الأساسي للأمراض العقلية والعصبية والنفسية هو ما يصيب الشخصية من اضطراب كأثر للصراع الداخلي الناتج عن التناقض بين ضوابط السلوك الفردي في المجتمع . ويستقبلون في مصحاتهم العامة والخاصة من القادرين مالياً على دفع تكاليف العلاج أعداداً متزايدة ، هم " جرحى " معركة الغزو الحضاري ومعاقوها ، وعشرات الألوف يهاجرون إلى حيث مركز قيادة الغزو الحضاري . أولئك الأسرى الذين استسلموا في معركة الدفاع عن امتهم وحضارتها . وسلموا شخصياتهم إلى مفترسيها .

وللغزاة في الوطن العربي حلفاء وأعوان .

الاقليمية المجرمة :

٥٥- أمة واحدة ذات حضارة واحدة مجزأة دولاً منذ أكثر من نصف قرن . هذا واقع ايضا في الوطن العربي أنشأ انماطاً من العقائد والعادات والتقاليد والآداب والفنون الاقليمية . تحركها دول على رؤوسها حكام تحت تصرفهم أجهزة قادرة وقاهرة من القوانين والمحاكم والسجون والمشانق . وينشأ كل شاب عربي يعاني من ازدواج الشخصية ، وتلك الأمراض التي يسمونها " العصابية " . إنه عربي الانتماء ولكنه اقليمي السلوك . إنه يحلم أحلاماً قومية ولا يستطيع أن يحقق إلا منجزات اقليمية . إن ولاءه بالسجية إلى الأمة العربية ولكن مفروض عليه ولاء لدولته وبالرغم من وحدة العقيدة ووحدة اللغة التي تحافظ على شخصيته العربية ، فإن الاقليمية بدولها ، بحكامها ، بقوانينها ، بتقاليدها بعاداتها ... الخ لا تفتأ تخلخل هيكل شخصيته كل يوم لعلها أن تصل إلى المستحيل . الغاء ما صنعه التاريخ . إن هذه الخلخلة لا تفعل أكثر من أن تضعف شخصية الشباب العربي فتمكن للحضارة الغازية – الأقوى – من أن تحطم هيكل تلك الشخصية . على هذا المستوى – ومستويات كثيرة أخرى – قلنا ونقول إن الاقليمية حليف للامبريالية ..

ولنضرب مثلا من قضية فلسطين ...

٥٦ – الفتح الاسلامي كان نوراً . التكوين القومي كان تقدماً . هذا بالنسبة إلى كل البشر الذين عاصروا الفتح الاسلامي ثم تفاعلوا فيما بينهم وبين الأرض فأصبحوا امة عربية . فلسطين إذن جزء من الوطن العربي وشعبها جزء من الشعب العربي . ففلسطين أرضاً وبشراً جزء من الأمة العربية أرضاً وبشراً .

ثم ياتي غزاة فيسلبون أرض فلسطين ويطردون جل شعبها ويستوطنونها . وتقاوم الحضارة القومية العربية الغزو مواقف واقوالاً وأفعالاً وفكراً وأدباً وفنوناً . وعلى مدى خمسين عاماً أو أكثر لا يكف الآباء والأمهات والمربون والمدرسون والاساتذة والكتاب والصحفيون والأدباء والفنانون عن تربية الأطفال على أن فلسطين أرض عربية وأنها جزء من الأمة العربية وأن الاسلام كان فتحاً لها ونوراً ويلقنون الأطفال ما فعل عمر بن الخطاب حين دخل فلسطين اول مرة ، وما فعل صلاح الدين حين حررها من الصليبيين ... إلى آخره . ينقلون إلى الأطفال جزءاً من تاريخ الحضارة العربية وهم يحدثونهم عن جزء من الأمة العربية ...

ويندفع جيل من الشباب وراء جيل من الشباب من أطراف الوطن العربي يقاتل من أجل استرداد فلسطين . ليس من سكان فلسطين ولا كان آباؤهم أو أجدادهم مقيمين فيها ، وليس لهم مصلحة في فلسطين حتى لو تحررت . ولم يدرسوا قضية فلسطين من خلال مراكز القوى في العلاقات الدولية ... انهم ذهبوا يقاتلون بكامل شخصياتهم العربية لأنهم عرب وفلسطين عربية لا أكثر من هذا .

فإذا بالاقليمية تتآمر خفية ، ثم تتآمر علناً ، ثم تجتمع لتتآمر ، ثم تعلن ما تآمرت به فإذا هو " الاعتراف بإسرائيل " . ماذا يعني الاعتراف بإسرائيل في نطاق هذا الحديث من الشباب العربي ؟ يعني ان دخول العرب تحت راية الاسلام في فلسطين لم يكن فتحاً بل كان عدواناً وبقي عدواناً أربعة عشر قرناً فمن حق " الشعب " الذي كان يسكنها قبل الفتح الاسلامي أن يستردها

أو يحررها كما يقول الصهاينة . يعني ان تكوين الأمة العربية كان قهراً شاملاً ، وصهراً فاشلاً ، وان اليهود ما يزالون أمة بالرغم من أنهم لم يكونوا أمة قط وبالرغم من انتمائهم إلى أمم قائمة أخرى يعني ماهو أكثر خطراً على الشباب العربي من سلب فلسطين . إذ هو يعني أن كل الآباء والأمهات والمربين والمدرسين والاساتذة والكتاب والصحفيين والأدباء والفنانين من العرب كانوا كذابين فيما كانوا يدرسونه في مرحلة الطفولة من أكاذيب يختلقونها عن الاسلام والفتح والعروبة والقومية وفلسطين . يعني ان هؤلاء الكذابين قد ضحوا بجيلين من الشباب لمجرد ستر أكاذيبهم .

لا يقول الشباب العربي هذا . لا يفصحون عنه . ولكن شخصياتهم التي تربت حضارياً على احترام الآباء والأمهات والمربين والثقة في صدق المدرسين والاساتذة ... الخ ، لا بد ان تكون قد أصاب شخصياتهم خلل هائل حين اصبح الاعتراف باسرائيل مقبولاً من الاقليميين ، فأية جريمة يرتكب الاقليميون في حق الشباب العربي ...

انهم الآن يدفعون الثمن الفادح من مواقعهم الاقليمية . فلا يلومون إلا أنفسهم حين يرون بعض الشباب قد أخذ يحلم أحلاماً صهيونية . ولم لا . إذا كان اليهود قد استطاعوا أن يحرروا الأرض التي كانوا يسكنونها قبل الفتح الاسلامي ، وكان العرب " الغزاة " قد اعترفوا أخيراً بأن هذا من حقهم ، فلماذا لاتكون للاقباط دولة ، وللموارنة دولة ، وللبربر دولة ... الخ .

الطابور الخامس :

٥٧ – خلال الحرب الأهلية في اسبانيا التي نشبت في سبتمبر ١٩٣٦ وانتهت في مارس ١٩٣٩ حاصر الجنرال فرانكو مدينة مدريد بأربعة طوابير عسكرية ، فلما استولى عليها قال ، أو قيل ، ان الفضل في الاستيلاء على مدينة العاصمة يرجع اساساً الى الطابور الخامس . وكانوا يعنون به " مؤيدي " فرانكو داخل المدينة . منذئذ . وإلى عهد قريب ، كان يطلق وصف " الطابور الخامس " على أولئك الذين يخدمون أغراض الغزاة من داخل الأرض المعرضة لخطر الغزو كما فعل " مؤيدو " فرانكو ، ونحن نقول " مؤيدو " ونكررها لأننا لا نريد ان ندين أحداً من ابناء الأمة العربية الذين يعملون جاهدين " بحسن نية " أو بدون حسن نية ، عامدين او غير عامدين ، واعين معركة الغزو الحضاري التي تدور في الوطن العربي أو غير واعين ، اننا لا ندين أحداً ولكننا نحدد موقفنا من ظاهرة .

أو حتى لا نسيء إلى أحد نتساءل :

ما الذي يفعله كل اولئك الكاترة والاساتذة والباحثين الذين انتشروا في مدن وقرى وريف الوطن العربي منذ بضع سنين لجمع البيانات والمعلومات واستنطاق أهلنا حتى من الفلاحين وتوجيه أسئلة شفوية أو حتى مكتوبة بحجة اجراء دراسات اجتماعية . ان ما يلفتنا هو أن كل تلك البيانات أو أغلبها هو مما يجمعه دارسو الحضارات في فرع من العلوم أنشأه المستعمرون الأوروبيون وأسموه " علم الاجناس التطبيقي " وأنشأوا له " الجامعة الاستعمارية في بروكسل " و " المدرسة الاستعمارية في باريس " وأدخل مادة تدّرس في جامعات اكسفورد وكابريدج ولندن في انجلترا ، وجامعة كورنيل في نيويورك بالولايات المتحدة الامريكية ، تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية ، وكل ذلك لتخريج وتدريب اخصائيين في هذا العلم يوفدون إلى أطراف

الأرض " يدرسون " حضارات الشعوب ، ويضعون ما يدرسون تحت تصرف حكوماتهم لتمكينها من قهر أية مقاومة داخلية للغزو السافر أو الغزو الحضاري وقد وصل الأمر باستشراء هذا النشاط الى حد ان " جمعية علم الاجناس التطبيقي " في انجلترا قد اصدرت عام ١٩٥١ " ميثاق شرف علمي " نشرته في كتاب تنبه فيه الى التناقض بين الامانة العلمية وبين تسخير ما تسفر عنه تلك الابحاث لأهداف سياسية عدوانية ضد البشر . لحساب من كل هذا البحث ، ومن الذي يدفع تكلفته ، ومن الذي يدفع أجره ، وإلى من يذهب في نهاية الأمر ؟

ونتساءل لمصلحة من كل هذا النشاط الذي يحاول أن يصوغ الشباب العربي على انماط مذهبية باسم الاسلام ، كأن لم يكن رسول الله آخر المرسلين . كأن الشباب العربي غير ذي حضارة اسلامية منذ ان نشأ عربياً مسلماً . يجتهدون . فليجتهدوا وليعلموا الشباب الاجتهاد ايضاً . ولكن الاجتهاد لايحتاج إلى كل تلك المنظمات والمؤسسات والأموال والعلاقات والاسلحة . ولم يحدث قط أن احتاج اليها أحد من الائمة المجتهدين . ان الذي لفتنا الى هذا هو تلك العداوة الجاهلية للعروبة والقومية ، كأنهم يريدون لنا ان نعود اعراباً ، واختلاق تناقض لا أساس له من كتاب الله بين الانتماء إلى الاسلام عقيدة والانتماء إلى الأمة العربية مجتمعاً وتجاهل وحدة الانتمائين حين اصبح الاسلام هو منشىء الأمة العربية وحضارتها .

ان الله يهدي من يشاء ، فلا نملك الا أن نحذر الأولين من أن يستدرجوا الى مواقع الطابور الخامس في الغزو الحضاري للأمة العربية ولا نملك إلا أن نقول للآخرين ان اذكروا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : " أوصيكم بالشباب خيراً فإنهم أرق افئدة . لقد بعثني الله بشيراً ونذيراً فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ " ، ثم تلى من قوله تعالى : [فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم] الحديد – الآية ١٦ .

٥٨ – أما انتم ايها الشباب العربي فهذه مشكلتكم فلا تقبلوا أن تكون مرحلة شبابكم مرحلة عذاب ، وقاتلوا الذين يقاتلونكم ، وانتم المنتصرون ، واغفروا لنا ما حملناكم إياه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .